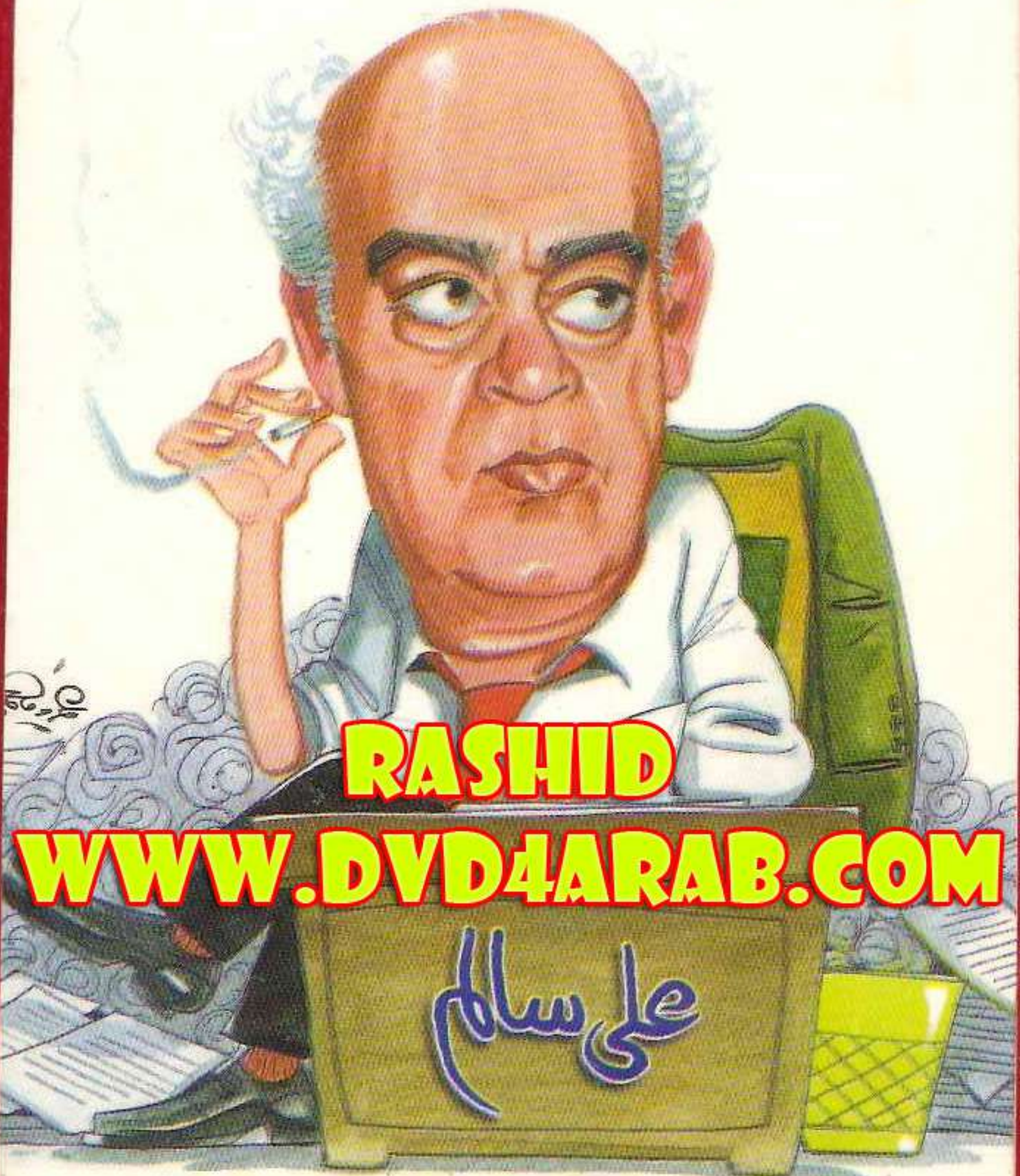


كتاب اليوم

هل لديك أقوال أخرى؟



RASHID

WWW.DVD4ARAB.COM

خيصة

في القمر الصناعي

في سن الخامسة لم يكن خيصة يخشى أى مخلوق في الحارة. كان شريراً لدرجة مبدعة ومفزعة، ومن المشاهد المألوفة في الحارة أن تراه جارياً صارخاً: الحقينى يا مّه، وفي أعقابه رجل يصرخ هو الآخر غاضباً، أو سيدة ترقع بالصوت الحيانى أو عدة أطفال أصابهم بأذى أو أفسد عليهم لعبتهم. ومن مآثره التي شاهدها بنفسى أنه اقترب ذات مرة من أحد زبائن المقهى وقال له في براءة: تسمح لى أشرب يا عم.

- اشرب يا بنى.

تناول خيصة كوب الماء في امتنان وفجأة وبهدوء دلقه على فحم الجوزة المشتعل ثم تناول كوب الشاى ودلقه على الأرض أمام الرجل المصعوق ثم أطلق ساقيه للريح. بالطبع أسرع الرجل خلفه بعد أن أفاق من المفاجأة، إلى أن وصل إلى أمه، أم خيصة

لازم أموته، الواد ده جايب لنا العار وقلة القيمة ومزعل مننا كل اهل الحارة.. لازم أموته أو على الأقل أرقده في المستشفى .. مافيش حل معاه غير كده.

حينئذ كان الفرع يستولى على الجميع فقد كان معروفاً عنه أنه متهور لدرجة لا يمكن التنبؤ بها، وهو عادة يقضى عدة شهور كل عام في السجن في جرائم بلطجة وتعدى، لذلك كان الآخرون يتدخلون بسرعة لحماية خيشة بما فيهم الضحية شخصياً: خلاص يا معلم، قلبك أبيض .. ده عيل في النهاية .. مسير الأيام تعقله ... بس تقول لاخترك تشد عليه شوية.

ويستمر خيشة في غزواته ويستمر الناس في الشكوى ويستمر أهله في ضربه، ولكن هل كانوا يضربونه فعلاً؟ الواقع أنه لم يحدث أن أم خيشة ضربته، ولم يحدث أن ضربه أبوه أو عمه أو خاله، نحن نسكن فوقهم مباشرة ولم يحدث أن سمعناهم يضربونه أو حتى يعنفونه كما يفعل معنا أهلنا، على العكس من ذلك كانت أصواتهم ترتفع عندما كانوا يدللونه ويغرونه على التهام المزيد من الطعام .. لماذا تكذب أم خيشة؟ ولماذا يكذب خاله؟ أحياناً كانت الضحية بدافع اليأس أو الخوف من أسرة خيشة، كانت تكتفى بشتيمته من بعيد ولا تندفع خلفه، خيشة نفسه هو الذي كان يجرى إلى أمه ويرتمى في أحضانها ويحكي لها ما ارتكبه في فخار فتمطره بالقبلات وهي تقول: ده انت واد مؤذى بشكل .. إوعى تعملها تانى يا واد .. وإلا حاضرك .. هات بقى بوسة لامك يا واد .. يا خواتي .. عسل، سكر.

التي كانت تسكن في بدروم أحد البيوت القديمة.

كان خيشة يصرخ بجملة واحدة يكررها بلا انقطاع: ما حصلش والنبي يا مة.. الماية هي اللي وقعت منى.. الحقينى يا مة. ولكن أم خيشة التي كانت على وعى بكل طاقة الشر والعدوان عند ابنها، ردت عليه على الفور بصيحة اهتزت لها الحارة: إخرس يا بن الكلب يا مؤذى .. هو أنا مش عارفك، والله لحاوريك. ويبدأ الحوار المعاد المكرر الذي حفظناه من فرط ما سمعناه: مش تربى ابنك يا أم خيشة.

- والنبي يا خويا نزلت فيه ضرب إمبراح لحد إيدى ما وجعتنى، وجه أبوه ربطه في السرير وقعد يضرب فيه طول الليل، وبعدين خاله جه ضربه قلمين ورم له إصداغه، وبعدها اتعشى جه عمه ونزل فيه ضرب لحد أذان الفجر ما قال الله أكبر .. ححك على وادى راسك أبوسها.. أهى. وبحركة مفاجئة تمد ذراعين قويتين تجتذب بهما رأس الرجل في عنف وهو يقاومها في ضعف ثم تقبله بالقرب من جبينه قبله قوية وكأنها ختم بوسطة. وينصرف الرجل وننصرف نحن ويختفى خيشة ليعود بعد قليل وقد ارتكب مصيبة أخرى.

أحياناً كان ضحايا خيشة يصعدون شكواهم إلى مستوى أعلى فيتوجهون إلى عم بندق العجلاتى خال خيشة الذى يقع دكانه على أول الحارة، وبعد أن يستوعب ما حدث كانت تنتابه نوبة عصبية فظيعة، وفجأة يدخل مسرعاً إلى الدكان ويخرج ومعه خرطوم كاوتش أو سيخ حديد وهو يصيح: والله العظيم المرة دى

خالاته .. الخ، وهو مالن يحصل عليه إلا بأن يكون شخصاً قليل الحياء عديم الأدب. ضع نفسك مكانه، أنت لن تحصل على التقدير والاحترام من أهلك إلا فى حالة أن تكون غيباً وكاذباً وسىء الخلق، فماذا تفعل؟

غادرنا الحارة وغادرتنا الطفولة ومرت أعوام طويلة إلى أن اقترب منى أحد الشبان فى مناسبة ثقافية وقدم نفسه لى باسم عادل الرشيدى، قال لى أنه يعرفنى منذ زمن بعيد، منذ أيام كفر الطماعين البرانى فى حى الدراسة.

- نعم .. نعم .. لابد أن ذلك حدث من زمن طويل جداً ..

■ لن تتذكر الاسم فقد كان إسمى فى ذلك الوقت ... خيشة.

- صحت: خيشة المؤذى؟! سبحان مغير الأحوال والأسماء.

ضحك وقال: نعم، لقد قضيت سنوات طويلة فى قاعات المحاكم لى أقوم بتغيير إسمى ..

- وأين تعمل الآن يا عادل؟

أرجوك، نادنى باسمى الحقيقى.. حتى الآن لى مقاومة داخلية تجعلنى لا أعتز باسمى الجديد.. أشعر بأننى غريب عنه وهو أيضاً غريب عنى.. أنا فى أفضل أحوالى عندما أكون خيشة.

- وماذا تعمل الآن يا عا ... أقصد يا خيشة؟

لقد حصلت على الماجستير فى علم الجمال وأعمل الآن فى مؤسسة إعلامية إعلانية ثقافية، لدينا جرائد ومجلات وشركات إنتاج فنى ومحطات إذاعة ومحطات تليفزيونية فضائية وأقمار صناعية.

كان من السهل علينا أن نستنتج حتى فى هذه السن الصغيرة أن أسرة خيشة كانت تمتنع عن عقابه لأنه آخر العنقود، ذلك العنقود الذى لا نعرف شيئاً عن حباته السابقة، كما كان اسمه - كما عرفنا فيما بعد - مقصوداً به حمايته من الحسد، فلا يوجد على الأرض ما يدعو أى مخلوق لتسمية ابنه خيشة أى ممسحة. الهدف من إطلاق هذه الأسماء على البشر هو الإيحاء للآخرين بأنه لا قيمة لهم وبالتالي يكونون بمنأى عن الحسد والحق والعداوة إذ لا أحد على وجه الأرض سيشعر بالغيرة من ممسحة أو يكن عداوة لمقشة مثلاً. غير أن صاحب الإسم المسكين يكون هو أول من يشعر بالضآلة وقلة الشأن عندما يكبر ويكتشف أن البشر لهم أسماء توحى بالقيمة مثل عادل وشاكر وحامد ومحمد وأحمد وعلى وسامى .. الخ، لا مفر فى هذه الحالة من أن ينشط العدوان بداخله ويصبح حرباً على الآخرين، لذلك سنلاحظ أن معظم الفتوات والمجرمين لهم أسماء من هذا النوع.

ومع بساطة ووضوح هذا التحليل إلا أننى واثق أن خيشة كان يمارس قلة الأدب لدوافع مختلفة تماماً، كان على يقين من أن أسرته «يسعدها» أن يؤذى الآخرين، وأنها تشعر باللذة من شكاوى الضحايا وتشعر بلذة مضافة فى تمثيل دور الغاضبين من أفعال ابنهم وأنهم لا صلة لهم بما يفعل، وبذلك يمكن اعتبار خيشة نفسه أحد ضحايا أسرته أيضاً، هو مدفوع للشر بقوة لا يملك لها رداً، فهو كأى طفل يريد الحصول على الحب والعطف والحنان من أهله، من أمه، ومن خاله، ومن عمه، من أعمامه، من

وحياة سيدك مين؟

أحياناً يحدث تصادم بين شخصين أو صديقين أو حليفين بشأن موضوع ما، ويتصاعد الخلاف بينهما إلى الدرجة التي تظن معها أن علاقتهما قد انتهت إلى الأبد وفجأة يحدث التصالح بينهما فلا تعرف لماذا اختلفا ولماذا تصالحا وكأن هناك سرّاً «دفيئاً» بينهما يخشيان من كشفه للآخرين. عندها نقول عنهما «أنهما دافنيته سوا» ما هي قصة ذلك المصطلح الشهير؟

يحكى أن اثنين من ظرفاء فقراء الصعيد كانا يجوبان الأرض بحثاً عن الرزق ومعهما جحش صغير يحمل أغراضهما البسيطة. ومن فرط الجوع والإجهاد مات الجحش المسكين فدفناه في الخلاء في نفس المكان الذي توقفنا فيه ثم جلسا متهاكين على الأرض وقد ركبهما هم ثقيل، بعد لحظات مرت بهما امرأة قروية تسكن قرية قريبة، ألقت عليهما التحية فردا عليها باقتضاب، كانت المرأة

تبادلنا أرقام التليفونات غير إنى لم أتصل به كما لم يتصل هو بى، ولكنى كنت أتابع نشاطه من بعيد. كانت مقالاته آية فى الغباء وقلة الحياء وعندما ترك الصحافة وعمل مقدم برامج، كان له برنامج شهير يشتم فيه الناس من المحيط إلى الخليج، فتشتمه الناس من الخليج إلى المحيط، كانت تحدث بسببه أزمات دبلوماسية بين بعض البلاد العربية، ولكنها كانت تمر على خير دائماً، ولكنى مازلت على رأى القديم الذى كونته فى طفولتى، إننى أراه ضحية مسكينة تمارس الأذى بالوكالة، فى أعماق الأعماق هو ليس مؤذياً، هو فقط خيشة، وعندما يكون الإنسان مجرد خيشة فالعمل الوحيد المناسب له هو أن يستخدم فى مسح البلاط ببعض الناس الذين يشعر تجاههم بالضالة.

■ إذا كان الرجل عظيماً لهذه الدرجة.. لماذا لا تبنيان له مقاماً يليق به؟

- لقد قررنا ذلك بالفعل.. ولكن لابد من مساعدة أهل الخير من أمثالك.

■ إطمئنا... سأبذل كل ما فى وسعى.

تركتهما المرأة وسارت فى طريقها إلى القرية، بعد ساعتين أرسلت لهما «طاجنا» من الحمام المحشى وملحقاته، وفى الصباح جاءهما طعام الإفطار يكفى عشرين فرداً.. الجبن.. الفول.. القشدة.. عسل نحل.. الفطير المشلتت..

وجاء آخرون، بعضهم استقر فى المكان، وتحول المكان بالفعل إلى مزار، ثم مولد فخم يقام فى كل عام، أما أعظم ما فى المكان فقد كان صندوق النذور المصنوع من خشب الماهوجنى والمرصع بالصدف والنحاس المشغول كان يمتلئ ويفرغ عدة مرات فى العام، أما فى أيام المولد فقد كان يمتلئ كل عدة ساعات. انتعشت حالة صاحبينا الظريفيين ولم يعودا فقراء، أصبحا من أثرى الأثرياء، حسابات هائلة فى بنوك الداخل والخارج، قصور ذات حدائق غناء، بيوت صيفية وأخرى شتوية، وكأى شريكين فى مشروع مبنى على الكذب والأوهام بدأ كل منهما يسرق الآخر وذات يوم اتهم أحدهما الآخر بأنه استولى من صندوق النذور ومن المعونات والمنح التى أرسلها أهل الخير على أكثر من النصيب المستحق له فرد عليه مستنكراً: ما حصلش.. والله ما حصل..

فضولية أو لعلها كانت تتمتع ببعض الميول الصحفية فسألتها لماذا تجلسان هنا فى هذا الخلاء القفر؟

من المعروف أن الحزن والإجهاد يولدان عند الظرفاء ميلاً قوياً للمرح والدعابة خصوصاً مع الفضوليين فأجابها أحدهما وهو يشير إلى بقعة من الأرض: هذا المكان يرقد تحت ثراه مخلوق عظيم.. ونحن هنا لزيارته والتبرك به.. وفى الغالب سوف نقيم هنا للأبد..

فسألتها بإلحاح: من هو؟.. ولأى مدى كان عظيماً؟.. هل كانت له كرامات؟

- نعم يا سيدتى.. كان أكثر المخلوقات على الأرض طيبة وصبراً وقدرة على التحمل، لم يكن يفضبه شئ، وكان صامتاً يفكر فى حكمة طول الوقت.. وكان.. وكان..

إندمجا الآن فى الدور، واصلا الحوار مع المرأة يعددان مناقب الفقيد فقالت المرأة فى حيرة: لم أسمع عنه من قبل..

- شأنه شأن كل العظماء يا سيدتى... لا تعرف الناس فضائلهم إلا بعد أن يموتوا...

■ ماذا كان اسمه..؟

- حتى اسمه لا تعرفينه؟ اسمه سيدى الحمار.

■ هل أنتما من بنى أهله؟

- لا يا سيدتى.. فلا أحد يعرف له أهلاً أو نسباً أو قرابة.. نحن مريدون له فقط.

مشروب

الربيع الصحى

كانت الجرائد قديماً، تهتم بالرأى والأدب والمساجلات السياسية والفكرية، وتعطى مساحة صغيرة للخبر، ثم ظهرت جرائد الإثارة. ولما كانت المعجزات هى أكثر الأشياء إثارة للعقل البشري، بالرغم من وعى الجميع بأن عصر المعجزات إنتهى، وإن المعجزة الحقيقية الآن، هى العلم ومحاولة فهم قوانين الطبيعة والحياة. غير أن الناس عندما يقف العلم عاجزاً، عن علاج مرض ما على استعداد لتصديق أية خرافة، تصف لهم علاجاً خرافياً، لعله يشفيهم أو يخفف أوجاعهم، هنا يبدأ دور صحافة الإثارة. فممنذ أكثر من خمسين عاماً، نشر خبر صغير عن فلاح مريض بالسكر والضغط، وفقر الدم، والبلهارسيا، وأمراض أخرى، كان فى طريقه من قريته إلى مستشفى المركز، عندما شعر بالتعب، فجلس ليسترىح فى حقل برسيم.

تحب أحلف لك بآيه؟ .. طب وحياء سيدى الحمار..

فرد عليه صارخاً: وحياء سيدك مين؟.. ده احنا دافنيه سوا.
هل عرفت الآن لماذا يتشاجر بعض الفرقاء من أصحاب القضايا العظمى ثم يتصالحون فجأة وكأن شيئاً لم يكن؟
السبب ببساطة هو أنهم دافنيه سوا..

عندما قرر صاحب محل عصير قصب شهير، الاستفادة من المعركة المثارة، التى وفرت له فرشاة إعلامية ممتازة، بدأ الرجل يعصر البرسيم، بعد أن أطلق عليه (مشروب الربيع الصحى) ويبيعه إلى زبائنه هنيئاً مريئاً، أو بمعنى أصح هنيئاً مريئاً. لقد شاهدت بنفسى الازدحام الكثيف، وطوابير الناس التى كانت تقف أمام الدكان ليل نهار على مدار الساعة، هى كانت فرصة طيبة. فبدلاً من أن تأكل (حمل) برسيم، تستطيع شربه مكثفاً ومركزاً فى كوب واحد فى لحظات، لست أذكر هل شربت منه أم لا، لعل قد أكون شربت منه كوباً واحداً، وهذا يفسر نوبات الغباء التى تعترينى أحياناً.

أصبح مشروب الربيع الصحى وما يثيره من صراع بين الحمير والادميين، المادة المفضلة عند رسامى الكاريكاتير.

احتارت الحكومة، ماذا تفعل فالبرسيم فى حد ذاته ليست به عناصر ضارة، بدليل أن الحمير تأكله منذ آلاف السنين، ولا تشكو من أى مرض ولكن حدث ما جعل الحكومة تحزم أمرها وتغلق المحل على الفور، بعد أن ارتفعت أسعار البرسيم فى الأسواق ارتفاعاً مذهلاً، مما يهدد الحمير كمخلوقات وكثروة حيوانية، بل ربما يترتب على ذلك الإخلال بالحركة الاقتصادية كلها، فالحمار فى الريف هو بديل للطاقة الكهربائية، وهو البديل الوحيد للموتور، هو يصلح لحمل الأثقال بدلاً عن سيارة النقل الصغيرة، وهو أداة المواصلات للأفراد بين القرى والنجوع فى طرق غير ممهدة، لاتصلح حتى لسير الموتوسيكل والبسكليت، هو أيضاً ليس

واستجابة لنداء غريزى غامض، أمسك ببعض فروع أوراق البرسيم، ووضعها فى فمه وأخذ يمضغها، شعر بنشوة وانفتحت نفسه إلى البرسيم، فأكل وأفرط فى الأكل، ثم واصل طريقه إلى المستشفى ودخل على طبيبه المعالج، الذى أجرى الكشف عليه واستولت عليه دهشة كبرى، فطلب منه إجراء بعض التحليلات والاختبارات والعودة بعد أسبوع، حذق الطبيب مذهولاً فى نتائج التحليلات، التى كانت توضح أن الرجل لا يشكو من شىء، وإنه فى تمام الصحة والعافية. سأل الطبيب المذهل، عما إذا كان قد تناول علاجاً مستورداً من الخارج، وصفه له طبيب آخر؟ فأجابه الفلاح : أنا خجل منك يا دكتور، دعنى أعترف لك، لقد شعرت برغبة عارمة فى أكل البرسيم، فأكلت منه كمية كبيرة، شعرت بعدها أننى فى تمام الصحة والعافية.

حتى هنا والخبر انتهى، غير أن المحرر سأل بعض المتخصصين، فأفاد بعضهم بأن هذه الحكاية ممكنة الحدوث، فالعلم لم يعرف حتى الآن، ولم يهتم بمكونات البرسيم، نظراً إلى احتقار الناس له، باعتباره غذاء الحمير الأساسى، لو كان خالياً من العناصر الغذائية المفيدة، من أين تأتى الحمير بهذه القدرة المذهلة على الصبر والتحمل؟ وتفجرت المعركة بين البرسيميين واللابرسيمين على صفحات الجرائد والمجلات، إلى هنا والأمر عادى، مجرد خرافة تضاف إلى الخرافات الموجودة فى المجتمع، ولكن بالفعل ظهرت طائفة جديدة من الناس هم «البراسمة» يأكلون البرسيم بحثاً عن الشفاء. ولكن الطامة الكبرى حدثت،

شورى شورى شورى

كلنا عاوزين شورى

نشرت جريدة الأخبار القاهرية الخبر التالى تحت عنوان « عضو بالشورى يتزعم ٢٥٠ مواطنا لمهاجمة قسم الخليفة، لرفض القسم وساطة النائب للإفراج عن اثنين يدخان الحشيش ». تزعم عضو بمجلس الشورى ٢٥٠ مواطنا هاجم بهم قسم الخليفة. قذف المتجمعون القسم بالحجارة وأصابوا جنديا وأمين شرطة وحطموا بعض سيارات الشرطة.. رفض المسئولون بالقسم وساطة نائب الشورى للإفراج عن عاطل ونقاش ضبطا يتعاطيان المخدرات فى حفل عرس، فقاد الأهالى لمهاجمة القسم. طلب مجلس الشورى مذكرة بالحادث وأفرج عن العاطل والنقاش بالضمان المالى ١٠٠ جنيه لكل منهما. تولى التحقيق فى الحادث عصام حسب الله وكيل نيابة حوادث جنوب القاهرة بإشراف المستشار بكرى عبدالله المحامى العام لنيابات جنوب. فقد تلقى اللواء محمود وجدى مدير مباحث القاهرة بلاغا فى

فى حاجة لمساحة كبيرة عند الركن مثل السيارة، وقيادته سهلة للغاية، يكفى أن تحفظ مقطعين صوتيين هما (شى أو حا) عند الانطلاق، و (هس) للفرملة، الجميل فى ركوبه عندما تنام فوقه بعد يوم شاق، أنك لن تضل طريقك، لأنه يعرف جيدا الطريق إلى البيت. أى أنه حتى لو كان البرسيم مفيدا للبشر، إلا أن الخسائر الناتجة عن ذلك فادحة ولا يمكن تحملها.

إن الخرافة ليست خطيرة فى حد ذاتها، ولكن الخطر الحقيقى يأتى من هؤلاء المستفيدين منها، غير عابئين بمصالح البشر، حتى لو تطلب الأمر أن يطعموهم أكل الحمير.

الثالثة صباح أمس من سكان المحجر بالخليفة عن وجود حفل عرس يسبب لهم إزعاجا يحول بينهم وبين النوم. كلف العميد إسماعيل الشاعر رئيس المباحث لفحص البلاغ، انتقل الرائد محمد منصور والنقيبان وائل البهنساوي وعبدالرحمن خالد لحفل العرس، فوجدا سراج زكى (عاطل) وعلاء الدين (نقاش) يتعاطيان المخدرات علناً وعثر معهما على ٢ جرام حبشيش فتم اقتيادهما إلى القسم.

تبعهما عضو مجلس الشورى وطلب إخلاء سبيلهما، فرفض المسئولون بالقسم، فقام بجمع أكثر من ٢٥٠ مواطنا وتوجه بهم للقسم وهم يرددون هتافات معادية للشرطة ويلقون بالزجاجات والحجارة على القسم. تمكنت قوة الشرطة من إلقاء القبض على ستة من المتجمهرين، وأمرت النيابة باستدعاء العقيد ماهر الجمال مأمور القسم والشهود لسماع أقوالهم وتحديد مسئولية عضو مجلس الشورى.

نشر الخبر بهذه الصورة قد يعطى انطباعا للقارىء بأن أعضاء مجلس الشورى عندنا يشيرون على الناس بتحطيم أقسام الشرطة أو أنهم - لا سمح الله - يشيرون عليهم بمقاومة السلطات والاعتداء على القانون. وإلى أن يشير بعض الناس على بعض الناس بإصدار تكذيب للواقعة كلها، سنسارع نحن لكشف جوانب الواقعة كما حدثت تماما دون إضافة أو حذف، إعطاء لكل ذي حق حقه.

فى حوالى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كان الفرع يلعلع وقد انسجم الجميع انسجاما عاليا بينما الجوزة تمر على المدعوين تسبقها عبارات مثل «مساء الخير، مساء الفل، مساء الجمال، شد

يا أبو أحمد... الخ» وفجأة جاءت سيارة الشرطة ونزل منها بعض الضباط وأمناء الشرطة والمخبرين، تجمد الكل فى أماكنهم وأصفر وجه العريس، ولكن الدماء عادت إلى وجهه عندما اكتشف أنه ليس هو المطلوب.

- الفرع ده بتاع مين؟
- بتاعنا يا باشا.. عقبال أولادك.
- طب خلاص.. كفاية كده.. شطبوا، إطفى الأمبلفاير يا بنى..
نزل السماعات.
- خلاص يا حضرة الضابط.. اتفضل أنت وأنا حاخليهم يشطبوا بعد شوية.

- ممكن أعرف حضرتك مين؟
- أنا مشير الشوارجى عضو مجلس الشورى.
- يا فندم الناس مش عارفة تنام.
- النوم هو سبب تخلفنا يا حضرة الضابط، لابد من اليقظة، نحن نمر بظروف حرجة على المستوى القومى والوطنى، ظروف تتطلب أقصى درجات اليقظة.. إن مهمتى هى أن أشير على الناس باليقظة، وأنا بصراحة سعيد لأنهم يقظون لم يناموا حتى الآن وبذلك يفكرون فى مشاكل هذا الوطن.

- من حق الناس أن تنام يا سيدى، والقانون يمنع أصوات الميكروفونات بعد منتصف الليل.

- ليس بعد منتصف الليل، بل بعد الساعة حداثر.. ولكن القانون لا يصنع البشر، البشر هم المرجع وهم صناع القانون.. والناس زى ما أنت شايف فرحانة وسعيدة.. هل تأتى الحكومة وتعكن عليهم؟ بوصفى عضوا بمجلس الشورى يا حضرة

الضابط وبما أن مهمتى تقديم المشورة لذلك أنا أشير عليك بالعودة للقسم فوراً.

غلت الدماء فى عروق الضابط، شعر برغبة قوية فى القبض على عضو مجلس الشورى ولكنه تذكر فجأة أنه محصن ضد القبض وضد الحريق وضد البرد وضد الإفلاس وضد الخوف وضد الألم وضد الطرد وضد الفصل وضد الاستقالة وضد الإقالة وضد الشعب. وهنا لمح الضابط جوزة تتحرك فى ركن بعيد والنار تتألق فوق الحجر، فأشار لرجاله فقبضوا على اثنين وشحنوهما فى البوكس وانسحبوا من الفرع عائدين إلى القسم. بعد لحظات كان العضو النائب فى القسم يطلب مقابلة الضابط المسئول، بينما اجتمع أهل الفرع خارج القسم. بعد أن انتهى الضابط من كتابة المحضر مع الزبونين وضعهما فى الحجز وسمح للعضو بمقابلته.

- لماذا قبضت على هذين المتهمين؟

- كانا يدخان الحشيش فى الفرع وقد اعترفنا بذلك فى المحضر ووقعنا عليه بدون إكراه.

- هل معك أمر من النيابة بالقبض عليهما؟

- لا.. كان من المستحيل أن أراهما يحششان فى الفرع ثم أنصرف دون أن أقبض عليهما.. هذا هو واجبى.

- واجبك أن تقبض على المواطنين لمجرد أنهم يحششون فى فرع؟.. هذا فرع ومن حق أى أنسان فى الفرع أن يفرح، المواطن الأول عاطل، الحشيش يجعله ينسى أنه عاطل وبذلك يوفر على الحكومة مشقة أن تجد له عملاً وهكذا تختفى مشكلة البطالة.. والآخر نقاش من حقه على الدولة أن يكون مزاجه عالياً لكى يبدع

فى رسومه ونقوشه.

- كل هذا جميل ولكن من الأفضل أن يقوله المحامى فى المحكمة.

- طب خلاص.. أنا حاتصرف.. دلوقت عايز حضرتك تفرج عنهم.

- الصبح هايترحلوا على النيابة.. النيابة حاتصرف فيهم.. الليلة دى هايناموا فى الحجز.

- لا.. مش هايناموا فى الحجز.

- آمال هايناموا فى؟ مفيش فى القسم حته تانية يناموا فيها.. أنا شخصياً بانام على الكنبه دى.. وزى ما أنت شايف حضرتك ضيقه جداً.. ماتكفيناش إحنا الثلاثة.

- يا حضرة الضابط.. مفيش داعى تستفز السلطة التشريعية.. ماتزعلنيش.. أنا زعلى وحش.

- يا حضرة النائب أنت لا تدرك المتغير فى المجتمع المصرى، كان ضابط الشرطة لسنوات مضت يخشى النقل إلى مكان ناء.. كان يخشى الاصطدام بالأكابر خوفاً من إيقاف ترقيته.. الآن هو ليس مهدداً بذلك.. بل بالقتل.. طبيعة عمله تحتم ذلك.. من فضلك لا تهددنى.. صحيح أنا لست عضواً بمجلس الشورى ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أشير عليك أن تخرج من هنا الآن.

- أنت تطردنى إذن؟

- لا.. أنا أطلب منك فقط العودة إلى الجماهير التى انتخبتك لأنها فى حاجة إليك.. من فضلك سيبنى أنا تعباً وشغلاً من أول أمبارج.

وهنا خرج مشير الشوارجى إلى الجماهير المحتشدة وألقى

الأرق..

والقطن

كانت أدوار البناية الجديدة، التي تحتل مساحة هائلة على ناصيتين لشارعين رئيسيين ترتفع بسرعة مذهشة. وهذا راجع لحرص أصحابها على استخدام أحدث صيحات التكنولوجيا في صب الخرسانة المسلحة. عدة خلاطات أسمنت عملاقة، أشبه بسفن الفضاء الكبيرة، محملة على شاحنات عملاقة، كانت تقف في الشارع بعد منتصف الليل وتضخ خلطة الأسمنت والرمل والزلط في مواسير تصل إلى الأدوار العليا المراد صبها. اختفى إلى الأبد مشهد العمال الذين يصعدون السقالات، حاملين «قصعة الأسمنت» وهم يغنون أغاني العمل الجميلة في إيقاعات قوية وعذبة، تعينهم على عملهم الشاق وحلت محلها أصوات المواتير العملاقة، التي تكاد تصم الأذان.

بالطبع كانت الأصوات المنبعثة من الموقع، تحرم عدداً كبيراً من

بالخطاب التالي:

أيها الأخوة المواطنون هذا هو عصر التحريض. لو أنني كنت أعمل في جريدة قومية لقمّت بتحريضكم ضد الغرب الإمبريالي. ابن الكلب، ولو أنني أعمل كاتباً في جريدة معارضة لقمّت بتحريضكم على الوقوف مع صدام والبشير والتراي.. ولكني مجرد عضو بمجلس الشورى، أنا واحد من العقول الكبيرة التي تشير على الدولة بما تفعله، ولكن القانون نفسه لا يلزم الدولة بذلك، ولذلك أنا وزملائي نحيا في عذاب أليم، نحن نواب عن الشعب لأننا منتخبون وبعضنا معين، ولكننا غير ملزمين لأحد بشئ وبذلك تذهب إشاراتنا ومشورتنا واستشاراتنا في الهواء، لذلك سأشير عليكم بشئ تفعلونه الآن لكي تثبتوا للعالم كله أن أعضاء مجلس الشورى يشيرون على الشعب بالفعل الصحيح وأن الشعب على الأقل في قسم الخليفة يستجيب لهم.. أيها المواطنون، هل تعرفون من يقف في وجهكم ويعكن عليكم ويمنع أفراحكم ويقبض على حشاياكم؟

ال جماهير صائحة:

- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!
- هل تعرفون السبب في تأخرنا وتخلفنا وضياعنا؟
- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!
- هل تعرفون الآن عدوكم.. من هو عدوكم؟
- قسم الخليفة.. قسم الخليفة..!!

وهكذا تحركت الجماهير واعتدت على القسم بمشورة عضو مجلس الشورى.

البشر من النوم، وذات ليلة استدعى أحد الجيران شرطة النجدة، ثم ارتدى ملابسه ونزل ليقف في موقع البناء، ولم يكتف بذلك، أخذ يزأر زئيراً تفوق على ضجيج الخلاطات وهدير مواتير الضخ، أخذ يصيح في انفعال: من تظنون أنفسكم؟ لماذا لا تعملون نهاراً؟ بعد لحظات سوف أرغمكم على احترام مشاعر الناس، حالاً ستأتى شرطة النجدة لتذكركم بسلطة القانون في هذا البلد.

أخذ الرجل يصيح بعبارات من هذا القبيل، بينما استغرق العاملون جميعاً في العمل، وكأنهم لا يسمعون شيئاً. وفجأة ظهرت سيارة شرطة النجدة ونزل منها ضابط شرطة شاب، من الواضح من حماسه أنها كانت مأموريته الأولى بعد تخرجه، قال بطريقة خطابية وصراخية: هذه معركة وليست موقع بناء .. هل تبنون السد العالى؟.. أين الشاكي؟

على الفور تقدم منه رجل نحيل وقال: أنا هو يا فندم.

واحد من العاملين الشباب تقدم منه هو الآخر في ترحيب: أهلاً وسهلاً يا فندم.. تحت أمرك.

- أنت مين؟

: أنا مسئول الخلاطات..

- ماذا أفعل بك يا مسئول الخلاطات؟ من فضلك استدع لى أكبر مسئول فى الموقع.. أنتم ترتكبون جريمة .. النوم حق من حقوق الإنسان. آلاف البشر من جيرانكم لن يقوموا بأعمالهم فى الصباح على الوجه الأكمل، لأنكم حرمتهم من النوم.. فكروا فى المرضى، فكروا فى الطلبة الذين يحلمون بالهدوء لكى يذاكروا

دروسهم.. فكروا فيما ستخسره البلد من جراء ذلك..

: يا فندم فرصتنا الوحيدة هى العمل بعد منتصف الليل، هذه السيارات والخلاطات العملاقة ستوقف حركة المرور تماماً إذا اشتغلنا نهاراً.

- من أنت؟

: أنا الملاحظ..

- روح هات لى رئيس الموقع المسئول.

: هو نائم الآن يا فندم..

- نعم! نام بعد أن حرم سكان المنطقة من النوم؟.. روح صحيه وإلا سأوقظه أنا بطريقتى..

قال الملاحظ لواحد من زملائه: خلاص.. روح صحى له سعادة الباشا.. سعادة اللواء السلحدار..

قال الضابط باهتمام: من تقصد باللواء السلحدار؟ هل تقصد الرئيس السابق للإدارة العامة لـ ..

: نعم، هو بعينه.. لقد خرج إلى المعاش منذ شهرين، وهو يعمل الآن مديراً لشركة البناء صاحبة هذا الموقع..

- أنا أعرفه جيداً.. ولا أعتقد أنه سيرضى بما يحدث أنا واثق أنه أعطاكم أمراً بأن تعملوا دون أن تحدثوا ضجة مقلقة للراحة، عموماً لا توقظه.. سأتفاهم معه فى الصباح..

قال ذلك والتفت إلى الشاكي، وقال له: هناك أمر يحيرنى منذ أن تلقيت هذا البلاغ.. بماذا تفسر أن كل سكان المنطقة ينعمون الآن بالنوم الهادئ ماعدا سيادتك؟ هل أنت واثق أن ضجيج

هوهوة؟

أصدرت محكمة فى أدنبرة حكمها بالإعدام على كلبة، لأنها «هوهوت» على ساعى البريد، استأنف أصحاب الكلبة الحكم لقسوته الشديدة، ثارت جمعيات حقوق الحيوان وعلى رأسها فنانة الإغراء المعروفة «بريجيت باردو».. انتهى الخبر، والباقي كله من عندى. بعد سماع الخبر بلحظات رن جرس التليفون، رفعت السماعة جاءنى على الفور ذلك الصوت الأنثوى الناعم الذى أعرفه جيداً، ردت وقد بدأ قلبى ينبض بقوة: أهلاً.. أهلاً.. والله زمان يا بريجيت.. كيف حالك؟

- لو كان حالى يهمنى لسألت على..

■ الفتنة نائمة يا صديقتى، لا أريد إشعال النيران القديمة، كلانا تقدم فى السن إلى الدرجة التى تمنعنا من الحصول على زماننا وزمن غيرنا.. تحت أمرك يا عزيزتى.. أؤمري.

العمل فى هذا البناء العظيم الجميل هو السبب فى عجزك عن النوم؟ ابحث يا رجل عن الأسباب الحقيقية، التى سببت لك الأرق؟ أليس من الجائز أنك ارتكبت شروراً عديدة أثناء النهار عذبتك ليلاً وحرمتك من النوم؟ أم هو الحقد على الناجحين البنائين؟ ألن تكفوا عن تعطيل حركة البناء فى المجتمع؟ ما رأيك فى أن تأتى معى إلى القسم الآن لتدلى بأقوالك فى محضر عن الأسباب الحقيقية التى دفعتك لهذه الشكوى؟!

أجاب الرجل وهو يرتعش: يبدو يا باشا أننى تسرعت فى البلاغ.. كان من الممكن أن أضع قطعى قطن فى أذنى وأنا.. ولكن للأسف ليس لدى قطن..

- وهل هناك إنسان متحضر لا يوجد فى بيته قطن؟ اتفضل، هناك صيدلية فى أول الشارع، هات منها قطناً وضعه فى أذنيك وروح نام.. تصبحوا على خير يا جماعة.

ترتسم على وجهه تكشيرة آدمية مستفزة؟ لماذا «هوهو» عليه لدرجة أشعرته بالفزع؟

قالت الكلبة: هذا الرجل شرير لدرجة لا يمكن تصورها، لشهور طويلة كان يأتى يومياً بخطابات يسلمها لأصحاب البيت، لاحظت أنه بعد انصرافه بلحظات كانت تدب فى البيت خناقة فظيعة بين الزوج وزوجته، كانت تصل إلى التشابك بالأيدى، فى كل مرة كان الرجل يسلمهما خطاباً كان يحيل حياتهما لجحيم، إذاً هو رجل شرير. أنا أكره ذلك الجو المتوتر المشحون بالغضب والخصام، الذى بسببه كف أصحاب البيت عن ملاطفتى والعناية بطعامى ونظافتى، كانوا يعيشون فى نكد دائم بسبب هذه الخطابات، التى يأتى بها هذا الرجل الشرير يومياً. أنا أعرف بالطبع أن «الهوهو» فى غير وقتها أو محلها سلوك غير متحضر، ولكن ماذا كنت أفعل دفاعاً عن حياتى وعن حياة أهل البيت، الذين أنا مكلفة أصلاً بحراستهم من كل سوء؟ ومع ذلك أنا لم أقفز عليه، لم أعضه، ولا حتى خربشته، لقد اكتفيت على سبيل الإنذار والتنبيه بالتكشير عن أنيابى والزمجرة الخفيفة المصحوبة بهوهو معقولة. ولكن اتضح أنه ليس شريراً فقط، بل هو رجل «عيل» بدليل أنه عمل عقله بعقلى ورفع قضية، ليتنى كنت مزقته تمزيقاً لكى أستحق حكم الإعدام فعلاً.

قلت لها مواسياً: يا عزيزتى.. ناقل الشر ليس بشرير، هو لا يصنع الخطابات بل يوصلها فقط، هذه الخطابات على الأرجح كانت فواتير أو إشعارات من البنوك، تطالب بديون مستحقة

- أريدك أن تتوجه فوراً إلى اسكوتلاندا للدفاع عن كلبة مظلومة، أريدك أن تعرف منها الظروف التى دفعتها «الهوهو» على ساعى البريد (عدد قليل جداً من القراء يعرف أننى أجيد فهم الكلاب)، لقد حكمت عليها محكمة درجة أولى بالإعدام، من المحتم إلغاء هذا الحكم الجائر فى الاستئناف، مذكرتك ستكون مهمة للغاية فى الدفاع، لا أريد أن أسمع منك أعذاراً، لقد أرسلت لك تذكرة الطائرة بالفاكس..

■ يا صديقتى القديمة، أنا منشغل الآن بالدفاع عن البشر.

- سيجد البشر دائماً من يدافع عنهم..

■ ليس دائماً يا عزيزتى.. فى منطقتنا الدفاع قوى جداً عن الكلاب فقط.

- يا عزيزى، دعك من الفلسفة.. أستحلفك.. من أجل حبنا القديم أن تتوجه فوراً إلى المطار.

من المعروف أن الكلاب فى العالم المتحضر، لا «تهوهو» على المسالمين، هى «تهوهو» فقط على المهاجمين وأصحاب النوايا السيئة، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم، ستجد بشراً كثيرين يهوهوون عليك لترويعك على سبيل التسلية.

فى مطار أدنبره كانت هناك سيارة فى انتظارى، توجهت مباشرة إلى الإدارة المركزية لحجز الكلاب، ألتنى أن أرى كمادة حمراء موضوعة فى إحكام على فكى الكلبة، طلبت منهم خلعها فشكرتنى بنباح خافت لطيف، سألتها: هل ضايقت ساعى البريد؟ هل يذكرك وجهه بحيوان أو شخص آخر تكرهينه؟ هل كانت



للغير، من الواضح أن ظروف أصحابك المادية سيئة، لذلك هم يتشاجرون يومياً، هذا الرجل كان يؤدي واجبه لا أكثر. صدقيني ليس في استطاعته أن يأتي لهم بخطابات مفرحة تبعد عنهم الشجار.

في مرافعتي أمام محكمة الاستئناف أثبت الدوافع النبيلة وراء «الوهوة»، وحصلت على البراءة، كما حكمت المحكمة بتعيين كلب شرس مرافق لساعي البريد، للرد سريعاً على أى «وهوة» تحدث من كلاب المنطقة التي يوزع فيها البريد.

البرنامج التليفزيونى عن أهل القمة، والحديث عن واحد من أشهر جراحى القلب فى العالم، وهو الدكتور «مجدى يعقوب»، الذى يعيش فى لندن، استضاف المذيع عدداً من تلاميذه ومساعديه، تكلموا عنه كلاماً جميلاً فى إجلال. أمر طيب للغاية أن يعرف المشاهدون أن النجومية لا تقتصر على أبطال المسرح والسينما والطرب وكرة القدم.

وترك المذيع الاستديو ونزل بالكاميرا إلى الشارع ليسأل الناس عن الجراح الشهير؟ تصورت أن الأسئلة ستكون من نوع: لماذا ينجح بعض الناس من منطقتنا نجاحاً ساحقاً فى عواصم الغرب؟ وما الأسباب التى دفعته للسفر إلى هناك؟ هل هى روح المغامرة؟ أم المضايقات؟ أم القرف؟ ولكن المذيع سأل الناس فى الشارع سؤالاً لا يخطر على البال: ما عدد العمليات الجراحية التى

فيجيب المعلم مبتسماً: الدكتور «مجدى» من زبائنى منذ أن كان طالباً فى كلية الطب، وعندما ينزل إلى مصر يأتى من المطار على هنا على طول، وأحياناً ينزل مصر ترانزيت وهو فى طريقه لعاصمة أخرى، فيطلب منى السمك بالفاكس من لندن فأقابه به فى المطار ساخناً .. هل أدلك على سر .. هو يقول أن سمكى هو السبب فى ذكائه الحاد، بالصدفة سألته الأسبوع الماضى عن عدد العمليات الجراحية التى أجراها فى حياته فأجابنى .. هكذا عرفت الرقم.

هنا يأخذ الجنيه الذهب بعد أن صدق المشاهدون أنه يستحقه، ومن المستحسن أن تنتقل الكاميرا إلى عيادة الدكتور «مجدى» فى لندن، أو يسأله بالقمر الصناعى توفيراً للنفقات: دكتور مجدى يعقوب .. بوصفك واحداً من أشهر جراحى القلب فى العالم .. نريد أن نعرف منك كم عدد أطنان سمك البورى التى تستخرج يومياً من بحيرة البردويل؟
يا جماعة خفوا علينا شوية .. حرام عليكم.



أجراها الدكتور «مجدى يعقوب» فى حياته؟

عدد كبير من البشر أجابوا: ما نعرفش

قالوها وهم ينظرون إلى الكاميرا بخجل ووجل. وكأنه من العار ألا يعرف المواطن عدد هذه العمليات. آخرون جربوا حظهم بذكر أى رقم يأتى على بالهم ٢٠، ٣٠، ٤٠، ٢٠٠، ٥٠٠، ألف، وفى كل مرة تأتى الإجابة خاطئة، وأخيراً ينتقل المذيع إلى محل سمك مشهور فى حى المهندسين، ويسأل المعلم صاحب المحل (سنلاحظ أن الكاميرا حرصت على تصوير المعلم صاحب الوجه المعروف لكل أكلى السمك فى الشرق الأوسط وفى الخلفية أسعار السمك المشوى والمقلّى والطواجن) .. وجه إليه المذيع نفس السؤال ففكر المعلم قليلاً ثم قال: ١٤٥٠ عملية ..

فقال المذيع مشجعاً: قربت شوية.

وهنا قال المعلم فى ثقة وكأنه تذكر فجأة: ١٦٠٠ عملية.

فرد المذيع وقد انفرجت أساريره: بالضبط .. هى (١٦٠٠

عملية) .. تكسب.

وأعطاه جنيهاً ذهبياً.

أعرف أن نابليون قال: النجاح فى حاجة لقدر من الدجل (بونابرت فى مصر) ولكن حتى الدجل فى حاجة لقدر كبير من الإتيقان والتعب، كان يجب على المعد أن يبذل مجهوداً فى إدارة الحوار، بحيث نصدق أن المعلم يعرف الرقم الصحيح فعلاً، بعد أن أجاب وقبل أن يتسلم الجنيه الذهب، كان على المذيع أن يسأله: مدهش يا معلم .. كيف عرفت الرقم الصحيح؟

بمرور الكيوسين، فينطفئ الوابور ويتحول الكيوسين إلى غاز خانق، عند اصطدامه بالعدة الساخنة، ومن أضراره أيضاً أنه كان خفيف الوزن، ويمكن تحويله بسرعة إلى أداة مشتعلة للضرب، خصوصاً عندما يفقد الزوج أعصابه، ويبحث عن أقرب شيء، في تناول يده، ليتفاهم به مع أم عياله. ولكثرة أعطاله كان لابد من ازدهار صناعة (إصلاح البوابير).. هكذا كانت أشهر صيحة في الحارات والشوارع هي: (نصلح وابور الجاز).. أذكر في ذلك الزمن البعيد، أنه ظهرت نكتة تقول: إن اثنين من هؤلاء، كانا يجوبان الحوارى، وهما مسطولان تماماً، فكان أحدهما يصيح: نصلح وابور الجاز، وكان الآخر يهمس في حارة أخرى: وأنا كمان.

ولأن شيئاً لا يبقى على حاله، ظهر فجأة جهاز البوتاجاز الشهير، فاختلفت البوابير واختلفت تلك الصناعة المزدهرة، التي كان يعمل بها آلاف البشر، في طول البلاد وعرضها. أرجو ألا تتصوروا أن الحنين إلى الماضي هو الذى جعلنى أتذكر هذه البوابير، فأنا شخصياً كنت أشعر نحوها بكراهية شديدة، ولكنى فوجئت منذ عدة أيام بإعلان صغير يقول إن «الاتحاد العام لبوابير الجاز»، سيعقد اجتماعاً مهماً، في قاعة معروفة، وأن أعضاء عديدين فى أحزاب وجمعيات مهمة، مدعوون لحضور هذا الاجتماع، دفعنى الفضول للتسلل إلى هذا الاجتماع، ورأيت عجباً.. مجموعة كبيرة من البشر، تخطوا التسعين من أعمارهم، يتحركون

نصلح بوابير الجاز

الجيل الحالى لا يعرف بوابير الجاز «البريموس»، التي كانت تعمل بالكيوسين. كان وابور الجاز الأنيق بخزانه النحاسى اللامع، وأطرافه الحديدية الثلاثة، وعدته المزعجة أو الساكتة، وكبّاسه الذى يضغط الهواء بداخله، كان يمثل درجة من الرفعة الاجتماعية، فى وقت كان فيه عدد كبير من البشر، عاجزين عن شراء هذا الوابور، وكانوا يستخدمون موقداً بدائياً يسمى (الكانون) يعمل بالخطب.

كانت مزاياه كثيرة وسيئاته أكثر فقد كان السبب فى وفاة أسر بأكملها استخدمته كوسيلة للتدفئة، فاستولى عليها النعاس سريعاً، بسبب صوت (الوش) الرتيب الهادئ، وفجأة تنسد (الفونيا) وهى ذلك الجزء الصغير، الذى يحتوى على ثقب يسمح

ألم تكن الناس أكثر صحة ونشاطاً أيام الوابور؟ ألم تكن هذه الأمة أفضل حالاً؟ ألم يكن البوتاجاز - يا سادة - هو الذى مهد لظهور الثلاثيات، التى تجرد الطعام من الفتيامينات؟ ألم يترتب على ذلك ظهور أجيال مصابة بفقر الدم والانيميا؟.. ثم جاءت الطامة الكبرى.. جهاز الميكروويف.. إننى أحذر.. الخ.

وخرجت من الاجتماع وأنا أردد فى نفسى: يا إلهى.. ألن تكف الامبريالية العالمية عن إلحاق الأذى بنا؟.. وكمان ميكروويف؟!

ويتكلمون ويتصايحون ويهتفون فى قوة وحيوية، وانطلقت الشعارات مدوية فى القاعة: نصلح بوابير الجاز، كدة تسليك وكده تواليع، الدنيا فونيا والزمن كبّاس.. ثم صعد إلى المنصة الأمين العام للاتحاد وبدأ خطابه: أيها السادة، اجتمعنا اليوم لنعيد أمجاد الماضى.. اجتمعنا اليوم فى ظل ظروف تاريخية بالغة التعقيد، لنعلن أن مهنتنا لم تمت، وأنه فى الغد القريب سيذهل العالم، عندما يرى المواطنين الأشراف، وهم يلقون بأجهزة البوتاجازات إلى مزابل التاريخ، وأن واپور الجاز عاد مرة أخرى لاحتلال المكانة اللائقة به فى كل بيت، مرة أخرى سيسمع ويستمتع الملايين بصيحاتنا فى الشوارع والحوارى: نصلح بوابير الجاز.

لقد سكتنا طويلاً إلى أن تجمعت فى أيدينا الوثائق، التى تؤكد أن ظهور البوتاجاز كان مؤامرة من أصحاب الاحتكارات الامبريالية العالمية، للقضاء على هويتنا وصناعتنا، غير أننا لن نسكت وسنوضح لكل المواطنين أبعاد هذه المؤامرة الدنيئة، كما سنكشف بالوثائق كل النتائج، التى توصلت إليها مراكز الأبحاث العلمية، وهى أن الطعام المطهو على البوتاجاز، غير صالح للاستهلاك آدمى، وأن النيران الهادئة اللطيفة المنبعثة من واپورنا العزيز، هى القادرة فقط على إنضاج الطعام بشكل صحى، سنكشف بالوثائق أن كل الأمراض الغريبة، التى لم تكن معروفة فى بلادنا، هى من صنع هذا البوتاجاز اللعين.. ولنكن صرحاء،

بالفعل، أخرج السائق حوالى مائة ألف جنيه من الخزينة ووضعها فى حقيبة ثم أغلق الخزينة بالمفتاح كما أغلق باب المحل وانصرف ولا من شاف ولا من درى.

ذهب إلى بيت زميله الذى يسكن هو وزوجته غرفة وحيدة ضيقة، فى منطقة فقيرة ذات كثافة سكانية عالية، وعلى سبيل الاستعراض فرحاً بإنجازه، أغلق السائق باب الغرفة خلفه وأمام صاحبه وزوجته أخرج الفلوس من الحقيبة ووضعها على الأرض فى منتصف الغرفة فبدت وكأنها جبل صغير. وهنا حدث أمر غريب سوف يحار فى تفسيره علم النفس، نظرت الزوجة إلى المبلغ على الأرض واندفعت تصرخ صرخات هستيرية مروعة. قفز عليها الزوج محاولاً كتم فمها أو حتى كتم أنفاسها غير أنه فشل وظلت هى مندفعه فى الصراخ والصويت. فى أقل من دقيقة اندفع الجيران وسكان البيت والبيوت المجاورة وحتى من الحواري المجاورة للتعرف على مصدر الصوت وسببه. شاهد الجيران الزوج وصديقه وجبل الفلوس على الأرض بينما الزوجة مستمرة فى الصوت الهستيرى وكأنها توفر للمشهد مؤثرات صوتية قوية.

قرر الجيران على الفور اصطحاب الثلاثة والفلوس إلى أقرب نقطة شرطة فقد أدركوا على نحو غريزى أن هذا المبلغ مصحوباً بهذا الصراخ وراءه جريمة، ليس معنى ذلك أنهم ضد الجريمة بوجه عام ولكنهم بالتأكيد ضد الجرائم التى يغتنى فيها واحد منهم فقط، وفى الطريق إلى قسم الشرطة كانت الزوجة مازالت

صدمة

فلوس

عامل وسائق يعملان فى منطقة الصاغة عند أحد تجار الذهب قررا أن يسرقا خزينة صاحب المحل فى لحظة طمع ورغبة محمومة فى الثراء السريع. كانت الخطة بسيطة ومحكمة، أن تختفى مفاتيح صاحب المحل لعدة دقائق حتى يتمكن السائق خلالها من صنع نسخة أخرى لها، وبعد أن ينصرفا من المحل يتسلل السائق عائداً إلى المحل فيفتحه ثم يفتح الخزينة ويأخذ ما بها من أموال ثم يعيد إغلاقها ثم يغلق المحل ويلتقيان فى بيت العامل فى حى روض الفرج، وكان الشق الثانى من الخطة يقضى بأن يدفنا المبلغ فى مكان بعيد حتى تنتهى تحقيقات الشرطة والنيابة، فبالقطع سيتم الاشتباه فيهما، كل المطلوب منهما هو الصمود وعدم الاعتراف بالسرقة مهما حدث.

خطة محكمة تماماً فلن يتركاً أثراً من أى نوع، وهذا ما حدث

تصرخ صرخاتها الهستيرية، وفي قسم الشرطة تمكن أحد الضباط بطريقة ما من إسكات الزوجة. وبدأ التحقيق، كانت أسهل قضية سرقة في حياته، فقد كان الإنكار مستحيلاً، كما كان من المستحيل نظراً لوضعهما الاجتماعي أن يزعم أنهما كسبا هذا المبلغ في البورصة مثلاً فقد حدث ما يجعل الاعتراف بالسرقة أمراً لا مفر منه فبعد وصول القافلة إلى قسم الشرطة بدقائق حضر تاجر الذهب ليقدم بلاغاً بأن لصوصاً سرقوا خزينته، وبتفتيش السائق عثر معه على المفاتيح المصطنعة. من المؤكد أن هذين اللصين هما أسوأ اللصوص حظاً في التاريخ، ولكني منشغل بأمر آخر، لماذا انهارت الزوجة وصرخت هذه الصرخات التي أفسدت الأمر كله وقادت زوجها وصديقه إلى السجن؟

هل هو نوع نادر من الصدمات تسمى صدمة الفلوس؟ هل هي كانت منشغلة بخطة خمسية للعثور على خمسة جنيهاً وعندما تملكها اليأس فوجئت بجبل الفلوس هذا؟ أم أن المسكينة أدركت أن هذا المبلغ بغض النظر عن مصدره سيكون دافعاً لزوجها للزواج من أخرى وإلقائها في الشارع؟! فتحوّلت الفلوس في لحظة إلى تجسيد حي لما ستلقاه من ضياع وشقاء خالقة بذلك لحظة من الألم عجزت عن تحملها؟!
الله أعلم.

السوق والحقوق

ازدحم السوق بالبشر، علت أصوات الباعة تمتدح بضاعتها وتتبادل أحاديث لطيفة مع الزبائن. الخضراوات ندية طازجة وكأنها قُطفت من حقولها منذ لحظات، الفاكهة لامعة تبرق، كل شيء كان ينبض بالحياة وفجأة استمعنا إلى ما يشبه المشادة بين بائع وربة بيت، صاحت السيدة: اعطني حقي..

رد عليها البائع بصوت مرتفع أذهل كل من في السوق واسكتهم تماماً، صاح الرجل: ليس للمرأة حق حتى يُعطى.

ساد الصمت السوق وكأنه تحول إلى صحراء ساكنة، وتقدم رجل عجوز يرتدى ملابس غريبة أقرب إلى أن تكون إغريقية قديمة، كانت ملامح وجهه لطيفة وصلعته أكثر لمعاناً من الفاكهة، قال بابتسامة عذبة وصوت رقيق: عفواً، فأنا غريب واسمى سقراط، ماذا تقصد بكلمة المرأة، هل تعني أنثى الإنسان؟

سقراط: ستقبع فى البيت اذاً.. يعنى ستحرم نفسك من أهم حقوقك كرجل وهو حق العمل، لأنك لن تجد وقتاً لتعمل، وبالتالي ان تجد ما تنفقه على أولادك، هل أفهم من ذلك أنك ستسمح لأم أولادك بأن تعمل هى لتنفق على البيت؟ هذا معناه أنك تعترف بحقوقها فى العمل، صدقنى أنت تتناقض مع نفسك ولعل السبب فى ذلك هو أن لديك مشاكل مع المرأة عجزت عن حلها، وهذا أمر شائع، أنا شخصياً عجزت عن حل أى مشكلة مع زوجتى. صاح البائع بأعلى صوته: مازلت مصرّاً على أن المرأة لا حق لها.

فى تلك اللحظة حدث أمر غريب، ظهرت سيدة حدجت البائع بنظرات نارية وصاحت بحزم: ماذا تقول يا زوجى العزيز؟ فقال البائع فى رعب: أقصد الحقوق السياسية.. السياسية.. السياسية..

فقالت المرأة فى صرامة بصوت أقرب إلى الهمس: طب قدامى.. قدامى.. قدامى على البيت. وعاد الناس إلى الشراء والبيع.

- نعم.

■ هى إنسان اذاً.. لا أصدق أنك تقصد أن تحرم إنساناً من حقه، فمعنى ذلك أنك تطالب بحرمان نفسك شخصياً من حقوقها، وأنا لا أتصور أنك تقصد ذلك، فلم أعرف إنساناً من قبل طالب بأن يُحرم من حقوقه.

تجمع كل الباعة والمشتريين حول البائع وسقراط يستمتعون فى صمت وترقب بتلك الندوة الثقافية المفاجئة عن حقوق الانسان، قال البائع: لا.. المرأة فقط هى التى تُحرم من حقوقها. هذا ما أقصده.

سقراط: وماذا عن الأطفال، صبيان وبنات، أقصد أطفالك، أليس لهم حقوق؟ وهذه الحقوق ستعطيها لهم أمهم وهى طبعاً امرأة، ستعاملهم بلطف وحنان، وتربيتهم، وتغذيتهم وتعلمهم كيف يواجهون الحياة بطريقة تجعلها أكثر عدلاً وانتاجاً وجمالاً.

البائع: نعم.. نعم، هذا هو حقهم عليها.

سقراط: جميل، طبعاً أنت تعرف أن فاقد الشئ لا يعطيه، من المستحيل أن تعطينى بطاطس أو طماطم إلا إذا كانت موجودة عندك، كيف تتصور إذا أن شخصاً حرم من حقوقه سيعطى الآخرين حقوقهم، معنى ذلك أنك تصدر على حق أولادك فى أن يتربوا تربية حسنة ويكونوا بشراً صالحين، أنا لا أعتقد أنك تفضل أن يصبح أولادك ذئاباً بشرية شرسة.

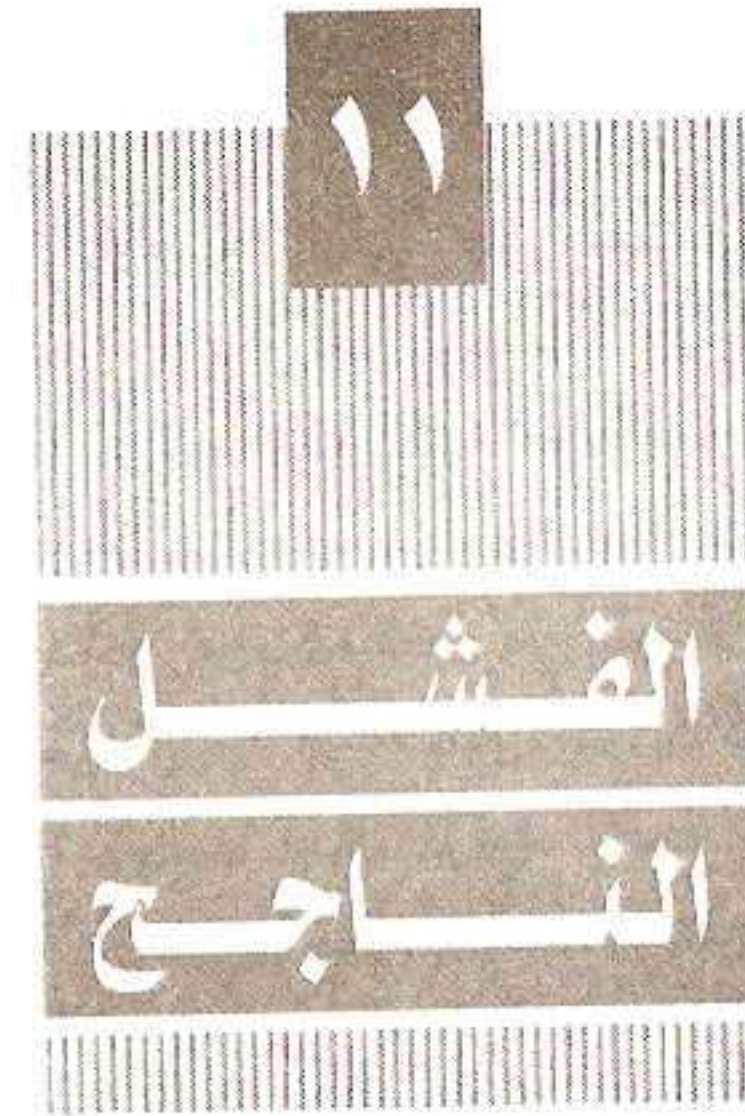
البائع: لو تطلب الأمر سأربيهم بنفسى لكنى لا يتحولوا إلى ذئاب.

الآلاف الأخرى فى عملية الإنتاج المسرحى الذى يتضح فشله فى ليلة العرض الأول، تمر عدة أيام عصيبة مليئة بالتوتر من أجل إنجاح العرض المسرحى، ولكن كل الجهود تفشل ويغلق المسرح أبوابه فمن المعروف أن العرض المسرحى الذى يولد ميتاً لا سبيل مطلقاً لإحيائه.

ويبقى الممول أمواله التى ضاعت، ويبكى أيضاً الديون التى سيدفعها للممثلين ولوكالات الإعلانات ولبقية العرض المسرحى، وتكون الإجابة الوحيدة من صديقنا المنتج هى: حاسم لك إيه يا حبيبى.. خسرتنا.. الحياة مكسب وخسارة.. وأدى أنت شايك الجهود اللى عملته.

ويختفى صاحبنا لعدة شهور ليظهر ومعه ممول آخر ليقدم عرضاً مسرحياً جديداً يفشل بدوره وتضيع أموال الممول ويختفى صاحبنا ليظهر من جديد ومعه ممول جديد وهكذا. وذات يوم حدثت له كارثة، فقد نجح العرض المسرحى نجاحاً منقطع النظير، ولأول مرة فى تاريخه يفرح الممول ويبكى هو، فأمام المسرح وقف طابور طويل من الدائنين السابقين، كل من له مبلغ فقد الأمل فى الحصول عليه، جاء الآن ليطالب به.

الواقع إنه بدراسة سلوكه جيداً اتضح لى أنه كان يحرص على فشل العرض المسرحى، كان يتخذ من الإجراءات والقرارات ما هو كفيل بإفشاله، فقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للإفلات بفلوس الممول، فأثناء خطوات تنفيذ العمل الفنى سواء كان فيلماً أو مسرحية تستطيع الحصول على أية مبالغ من الممول الذى يتحرق شوقاً لإنهاء العمل ولا فرصة لديه للتدقيق فى أوجه الصرف، فى كل لحظة هو يدفع ويدفع ويدفع، وأثناء عمليات



كان رحمه الله سريع الحركة، زائد النشاط قادراً على حل أى مشكلة تثور بين العاملين، كان يعمل منتجاً مسرحياً ويتسم بدرجة عالية من الدبلوماسية والتهذيب، لم يحدث أن عجز عن حل أى مشكلة، لذلك كان من المستحيل أن تصل خلافاته مع الآخرين إلى حد الصدام، ساعده على ذلك أن حقيبة سيارته كانت ممتلئة دائماً بعدد كبير من الهدايا.. قطع صوف.. قمصان.. فلوس.. سجاثر وأشياء أخرى لها أهميتها فى عالم الفن والفنانين فى وقت كان من الصعب فيه العثور فى الأسواق على سلعة مستوردة.

كان من السهل عليه العثور على ممول غنى لتمويل مغامراته الإنتاجية بنفس السهولة التى تعثر بها على كشك سجاثر ومع كل ذلك فقد كان الفشل حليفه فى أكثر من تسعين فى المائة من أعماله المسرحية، أولاً هو يصطاد الممول، يسحب منه ما يريد من أموال، يتفق منها عشرات الآلاف فى إعداد مسرح جديد وعشرات

أنت.. والعالم!

في الطائرة كانت المضيفة من جزيرة «سيشل»، وفي المطار كان يوجد سائق من «بلوشستان» أقلنى إلى الفندق، وعند باب الفندق انحنى لى مرحباً شاب هندى وحمل حقائبى إلى الداخل، كانت له لحية سوداء ملتصقة بالشارب فى تشكيل جميل، كان بعمامته الجميلة برتقالية اللون وملابسه الهندية الشعبية، أشبه بمهراجا خرج لتوه من الحواديت القديمة.

وفى الاستقبال سجلت موظفة إنجليزية بيانات جواز سفري، وقدم لى شاب مصرى مشروب الترحيب، وفى المطعم قدمت لى طعام الغداء حسناً من «ليتوانيا»، وعندما طلبت خدمة الغرف، ردت على فتاة سورية، وقام بتنظيف غرفتى شاب باكستانى، بالإضافة لعدة جنسيات أخرى كما لو أن شعوب الأرض أرسلت مندوبين عنها للعمل فى خدمة سيادتى.. واقع الأمر أنه لا أحد

الدفع هذه كان صاحبنا يستفيد كل الاستفادة، لذلك كان نجاحه فى الإفلات بما حصل عليه يحتم أن يفشل العرض، أى أنه كان ينجح دائماً فى أن يفشل، هكذا كان نجاح العرض المسرحى المفاجئ لأسباب خارجة عن إرادته معناه أنه فشل فى أن يفشل إن صح التعبير.

وبدا المسكين يدفع، لا سبيل إلى الهروب أو الإفلات من الجهات الدائنة فعندما يمتلىء شبك التذاكر بالفلوس فلا بد أن تعسكر بجواره، وتكون النتيجة أنه يمكن العثور عليك بسهولة وإرغامك على الدفع. لماذا أحكى لك هذه الحكاية؟

أريد أن أقول لك بكل وضوح أنه لا يوجد على الأرض شخص غبى، كل البشر أذكىاء، وعندما تتهم شخصاً أو مجموعة من البشر بالغباء لأنهم فشلوا فى إدارة مصنع أو شركة أو مشروع أو قيادة أمة أو إدارة دولة فاعلم أنهم يماثلونك ذكاء، هم فقط يحققون مكاسب شخصية من خلال فشلهم العام، قد يكون هذا المكسب أموالاً وقد يكون جاهاً وقد يكون الشبح النفسى الناتج من أنهم شغلوا العالم وحيروه واحتلوا من تفكير البشر حيزاً كبيراً.

هم أذكىاء وطبيعيون ولكنهم ضعفاء ومصابون بدرجة مخيفة من الأنانية تجعلهم حرباً على البشر، تستطيع أن تعرفهم على الفور عندما تجدهم يصرون للآخرين أهدافاً معلنة بينما يعملون خفية لتحقيق أهداف أخرى إلى أن تأتى اللحظة التى يدفعون فيها الفاتورة كاملة.

الأقوياء فقط هم الذين يعلنون ما يفكرون فيه، ويعبرون عن أهدافهم بوضوح ويمشون فى اتجاه تحقيق هذه الأهداف مهما سبب لهم ذلك من متاعب.

مع مثقفي العالم كله، بينما هم فقط مدربون على الصياح:
احترسوا.. احذروا..

احترسوا من الحرية فقد تحمل معها قيماً ضارة بقيمتنا،
احترسوا من القمر الصناعي، احترسوا من «الانترنت»، احترسوا
من «الجات» لأنها ستقضي على منتجاتنا وسلعنا، احترسوا من
حقوق الإنسان لأن ذلك ضار بتماسك الوطن.. احترسوا من
السلام.. احذروا الحرب.. احترسوا من هذا الكتاب.. احذروا هذه
المسرحية.. وأخيراً احترسوا من العولمة لأنها ضارة بالصحة.

الانكفاء على الذات والخروج عن العالم وعلى العالم صالح فقط
للأنظمة المستبدة، حيث المواطن يحسد نفسه على أنه استيقظ في
الصباح فوجد نفسه حياً، أما في ظل حكومات ديموقراطية، فعلى
الناس فيها أن تسأل أنفسهم.. ماذا لدى لأقدمه لهذا العالم؟ لهذه
الحضارة؟ الآخرون يفخرون بالبحث العلمي وبإنجازاتهم
التكنولوجية.. فماذا لدى؟ وإذا لم يكن لدى ما أقدمه الآن فماذا
أفعل وفي أي طريق أسير لكي أتمكن في الغد القريب أو البعيد من
الإسهام في حضارة هذا العالم ولو بقدر بسيط؟

إذا كان الغرب قد بهرنا بإنجازاته العلمية، فنحن نستطيع
التفوق أو على الأقل نبذل مجهوداً ملحوظاً في مجالي الحفاظ على
البيئة وحقوق الإنسان.

هل نستطيع الوصول.. مثلاً.. إلى مكانة مرموقة في هذا العالم
عن طريق الموسيقى؟ عن طريق الأغنية؟ لا يجب أن نترك فرصة
إبداعية عالمية تمر دون أن نشترك فيها. وماذا عن الرياضة؟ إن

على الأرض يعمل في خدمة الآخر، بل في خدمة نفسه، كل هؤلاء
البشر من كل أقطار الأرض جاءوا ليمارسوا أعظم قيمة حياتية
على وجه الأرض: العمل.

كل هؤلاء البشر المنتمين لثقافات وحضارات مختلفة، أتوا
لممارسة شيء واحد هو: العمل.. العمل هو الوسيلة وهو الهدف..
العمل سيدهم.. والعمل حياتهم.. تقاطيع الوجه الهادئة والابتسامة
الدائمة في غير تكلف تقطع بأنهم اكتشفوا أعظم اكتشاف على
وجه الأرض، وهو أن بلاد الله هي نفسها بلاد كل البشر، وأن
الجنسية الوحيدة الجديرة بالحصول عليها هي: العمل.

هذه الخضرة التي تكسو الأرض، هذه الطرق السريعة بأعلى
المواصفات، هذه المباني الفخمة أقامها هؤلاء القادمون من كل
أنحاء العالم.

مر النهار سريعاً وفي المساء شاهدت ندوة في التليفزيون، كان
ضيوف الندوة من المثقفين وموضوعها «العولمة» كيف يمكن
مواجهة أخطار العولمة؟

من الواضح أن الحياة العربية في البيوت والشوارع والمصانع
والدواوين وكل مجالات العمل تمشي في اتجاه، بينما عدد كبير
من مثقفي هذه الأمة يمشون في الاتجاه المعاكس، بدافع من الرعب
من الآخر وانعدام الرغبة في التغيير إلى الأفضل.

إن رعبهم من العالم نابع من عجزهم عن التفكير العملي
ورغبتهم في الاحتفاظ بالاكليسيات القديمة التي تحميهم أصلاً
من عبء المعرفة، هم مطالبون بالدخول في حلبة المنافسة الفكرية

أكثر المشروعات ربحية هي تلك التي تستثمر أموالها في صنع أجسام البشر القوية وتهيئة عقولهم لاستيعاب علوم العصر وترقية أخاسيسهم بالعدل والخير والجمال، وقبل كل ذلك الرغبة في التفوق وعدم الخوف من المنافسة..

هل يتطلب الأمر إعادة النظر في مناهج التعليم عندنا، خصوصاً في المراحل الأولى، أليس من الجائز أن نكتشف أن مناهج التعليم عندنا تشعر الأطفال بالرعب من الآخر بل الرعب من الحياة نفسها؟ أليس من الجائز أننا نعلمهم الكسل العقلي والخوف من التفكير الحر؟

هل ننشئ وزارة جديدة، أو حتى مجرد إدارة لاكتشاف الأطفال الموهوبين وحمايتهم ومتابعتهم ومساعدتهم على مر الأعوام على المضى في الطريق الذي تحتمه موهبتهم؟ يجب أن نحرص على الفرد الموهوب في أى مجال وكل مجال حرصنا على الحياة نفسها، الموهوبون وحدهم هم القادرون على هزيمة الشر.

أحترس

من العولة

نظراته قلقة لا تستقر في مكان، وجهه محتقن، أطرافه ترتعش، صوته فيه بحة تعسة، بحالته هذه اقتحم علينا المكان، وصاح فينا قبل أن يلقى علينا بالسلام: المنطقة كلها مهددة بخطر العولة، وأنتم هنا قابعون في مكانكم تناقشون قضايا لا أهمية لها. رد عليه أحدنا في لطف: نحن نناقش هنا قضايا مهمة للغاية: الحرية، حقوق الإنسان، الحرب والسلام، التعليم..

عاد يقول في حدة: ما أهمية كل ذلك عندما تستولى عليك العولة؟ وتحولك إلى إنسان متعولم، هل ضمائرهم تسمح بذلك.. هل هانت عليكم أمتكم إلى الدرجة التي تستسلمون فيها للعولة؟ - هل تسمح يا عزيزي بأن تشرح لنا ما هي العولة التي تتكلم عنها؟.. هل هي قنبلة من نوع جديد؟.. هل هي سلاح جرثومي أو كيماوي.. هل هي نوع من الغيلان؟ نوع من الغازات أو الأبخرة الملوثة للبيئة؟

يا إلهي، هل أنتم حقيقة لا تعرفون عنها شيئاً؟! إذا كنتم تعرفون فتلك مصيبة وإذا كنتم لا تعرفون فالمصيبة أعظم.
- اعف عن جهلنا.. إشرح لنا أعزك الله.

وهنا بدأ صاحبنا محاضرتة بصوت فخيم: العولمة هي الخطر الداهم والشر المستطير، والمصير المظلم، العولمة هي أن يتحكم أعداء الأمة في حاضرها ومستقبلها.. أن يخرّبوا ثروتها، ويقضوا على عزتها، ويضعفوا مناعتها، ويفقدوها هويتها، ويحرموها من تراثها وتقاليدها وخصوصيتها.

شعر بعض الحاضرين بالفرع وصاح أحدهم: يانهار اسود هل هذا ما ستفعله بنا العولمة؟.. لا كنا ولا كانت العولمة.. تسقط العولمة.. إلى الجحيم يا عولمة.

ردد البعض خلفه الهتافات ولكننا هدأناهم وطلبنا منهم السكوت. أحد الشبان النجباء سأل الضيف: صدقني، حتى الآن لم أعرف منك ما العولمة؟.. ما تقوله هو صفات لها، ولكنك لم تعرفها لنا بعد.. ما العولمة؟

وهنا صرخ فيه ضيفنا واسمه بالمناسبة هو المنذر المحذر الفاضل: هي بالضبط كما وصفتها لك.. فهل ستلجأ للسفسطة حتى تضيع فرصتنا في مقاومتها فنستيقظ ذات صباح لنجد أننا جميعاً قد تعولنا وليعوذ بالله.. كنت أظنكم أفضل من ذلك.

قال أحد الشبان: مافهمته عن العولمة هو أن العالم كله أصبح أصغر من أن ينقسم إلى أجزاء متناحرة، وأن كل دولة على حدة لابد أن تراعى أنها جزء من هذا العالم، وأن الجميع، في حاجة إلى الجميع لذلك على الجميع بكامل حريتهم وإرادتهم وفي مالا

بتعارض مع مصالحهم أن يلتزموا بما يصلون إليه من اتفاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .. الخ.. وأنا لست أرى خطراً في ذلك..

فقد صاحبنا أعصابه وصرخ وكأنه يولول: آه .. لقد حدث ما حذرت منه بالفعل .. هذا الشاب قد تعولم يا إخواني.. أمامي الآن حالة عولمة حادة.. لست ترى خطراً من ذلك لأنك ساذج، مخك تم غسله بدعايات الغرب العولمية الشريرة.. أنا أقول لك إن الأمة تواجه أفظع خطر مر بها في تاريخها وأنت تقول لي إنك لا ترى خطراً في ذلك.. إما أنك عميل عولمي أو أبله..

- أنا واثق أنني لست عميلاً عولمياً.. في الغالب أنا أبله.. هل تطوع بمساعدتي في التخلص من بلاهتي..؟ هل تسمح لي بأن أراجع في كلامي.. حسناً، أنا أرى الآن في العولمة خطراً فظيلاً.. لماذا تنصحن أن نفعل.. ولكن أرجوك.. استخدم كلمات يمكن تحويلها إلى أفعال.

أنا سعيد لأنك استيقظت من أوهامك وتخلصت من بلاهتك وأدركت خطر العولمة .. والآن استمع لخطتي في مكافحة أخطار العولمة .. لا بد..

- يا سيدى المنذر المحذر لفاضل.. أنت تنتقل من شرح أخطار العولمة إلى طرق مكافحتها دون أن نعرف منك ما العولمة؟

وهنا فقد الأخ المنذر أعصابه وصاح: ألم أقل لكم إن هذا الشاب قد تعولم.. بعد كل هذا الشرح يسألني في بلادة ما العولمة؟!!... هو لا يعرفها لسبب بسيط، لأنها قد استولت عليه.

- حسناً يا عزيزي المنذر.. اتفضل اشرح لنا خطتك في مكافحتها.

: لابد من حشد طاقة الأمة العربية كلها فى مواجهتها وذلك من خلال حملة هائلة تستخدم فيها كل وسائل الإعلام، من صحف، ومجلات، وتليفزيون، وسينما، ومسرح، وأغانى، ومونولوجات، ومناهج تعليم، وإقامة الندوات والمؤتمرات، لتبصير المواطنين بالمصير المرعب الذى ينتظرهم إذا استسلموا للعولمة، لابد من تشييد حصون قوية داخل أفئدة البشر، واستنباط وسائل مقاومة جديدة مبدعة وخلاقة لتحسين المواطنين ضد العولمة، فكروا معى فى شعارات تعلق على الجدران، مثلاً: «أموت ولا أتعولم»، «تعلموا ولا تتعولموا» أو صورة وحش يفتك بالبشر ونكتب عليه «العولمة» .. الخ.

واحد من الحاضرين يعمل مؤلفاً لأغانى المناسبات قال بفرحة: صحيح، أنا حتى الآن لم أفهم ما العولمة؟ ولكنى على الأقل أستطيع كتابة أغان تصلح للحملة، هل تصدقون أننى قفشت الآن مطلع أغنية جديدة تقول: حبيبى يا معلمة.. بقى كده تهجرنى، وتسيبنى للعولمة؟! وأغنية أخرى تصلح لنزول التترات فى برنامج تليفزيونى ثقافى:

الطموا صوتوا، افرحوا عيطوا.
وافتحوا الكلمة.
وانذروا، حذروا، شخبطوا، واكتبوا.
عشرة آلاف ملزمة.
وفى كل صفحة.
اشتموا العولمة..

الأسطى!

كان السيد «سونى» رجل الصناعة اليابانى الشهير، يتحدث فى برنامج تليفزيونى أمريكى، كانت المذيعه تناقشه فى آرائه المنشورة فى كتابه الأخير الذى اتهم فيه الأمريكان بأنهم لا يجيدون علم الإدارة، وأن ذلك هو السبب الوحيد فى أن عدداً كبيراً من المصانع والشركات تغلق أبوابها.

ثم أخذ يقارن بين المصنع الأمريكى والمصنع اليابانى، وتكلم عن رئيس مجموعة العمل وكيف أنه مسؤول ليس عن إنتاجية العامل فقط، بل عن راحته فى المصنع وفى البيت، أى أنه مسؤول أيضاً عن اختيار المرأة التى سيتخذها العامل شريكة لحياته.

كان يتكلم بينما ذهنى يسرح لبعيد، لبلدتى القديمة «دمياط»، الواقعة على مصب النيل بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، كل حرف قاله السيد «سونى» كان مطبقاً على الورشة الدمياطية فى

مجال النسيج، والنجارة، وصناعة الأحذية فى نهاية الأربعينات، عندما كانت هذه المدينة الصغيرة تصدر الموبيليا والأحذية إلى كل من فرنسا وإيطاليا، بغير عولة وبغير اتفاقية «جات»، ودون أن تكون عضواً فى الاتحاد الأوروبى، بل بفضل الاتقان وحده.

تذكرت أخطر شخصية عمالية وهو «الأسطى» الأسطى مدرسة وجامعة وأهل .. هو مسؤول عن تأهيلك للعمل، وتأهيلك النفسى والخلقى للحياة نفسها، وأى سلوك معيب للعامل لا يشينه شخصياً فقط، بل يشين «أسطواته» أيضاً. وعندما يتقدم العامل إلى إحدى الأسر للزواج، فلا يكفى أن يصطحب معه أباه وأمه فقط، من المحتم أن يكون معه الأسطى الذى يعمل معه، ضماناً لأخلاقيات العامل ورجولته، هذا هو الأسطى الذى أعمل معه، والذى تعلمت على يديه تماماً كما تقول أنا خريج هارفارد أو ييل أو السوربون. وفى المشاجرات بين أصحاب الصنائع، كثيراً ما كنت تسمع كلمات، مثل: أنا أسطواتى فلان، وفلان من هم أسطواتك؟ أو لن أتكلم معك.. لك أسطى يترد عليه.

وفى عصرنا هذا عندما تجلس مع عجائز النجارين، الذين على وشك الانقراض لابد أن يقول لك أحدهم: أنا اتعلمت على يد أسطوات طلاينة أو أرمن.. ثم يبدأ فى سرد حكايات جميلة عنهم. أن يرضى عنك الأسطى، هذا هو أهم شىء فى الصنعة، وهو لن يرضى عنك إلا بعد الوصول لدرجة من الاتقان لا يمكن تجاوزها. والخطأ فى الصنعة كان أشبه بالخيانة العظمى، وأكثر الكلمات قسوة هى أن تقول لعامل: «دى مش أصول شغل»، عندها

ينتابه الفزع، لأنه يعرف أن هناك أصولاً للشغل، وأن انتهاكها أو عدم الالتزام بها يعد جريمة.

من أجمل الأمور فى الحياة أن يتكلم كل منا بصدق وإعجاب عن هؤلاء الذين علموه شيئاً مفيداً، هذا يشيع فى المجتمع قدراً هائلاً من الأمانة والصدق والقوة، ويزداد الأمر أهمية عندما نعتزف بأنهم كانوا على حق وأننا كنا مخطئين، ليس لكونهم أسطوات، ولكن لأنهم كانوا أبعد منا نظراً، وأوسع خيالاً وأكثر خبرة. هذا هو بالضبط ما أسعد جمهور المشاهدين عندما شاهدوا الدكتور بطرس غالى عضو مباحثات «كامب ديفيد» وهو يتكلم عن الرئيس السادات، قال: أعتزف بأننا لم نكن نفهم أسلوبه فى التفاوض، ولكنه كان عبقرى واستطاع تحقيق أهدافه السياسية، اختلافنا معه كان ناشئاً من الخوف الذى استولى علينا، لا أعرف هل كان خائفاً مثلنا أم لا ..؟

وحتى لو كان خائفاً من الفشل، إلا أنه استطاع أن يخفى عنا ذلك ويظهر دائماً بمظهر الواثق من نفسه وبما يفعل.

قائل هذه الكلمات أسطى كبير فى الديبلوماسية والعلوم السياسية، وهو كإى أسطى كبير، لابد أن يعلن إعجابه بأسطى آخر، كان أكثر منه مهارة فى موقف ما، هذه هى أصول الشغل بين الأسطوات الكبار.

اسكوتلاندا. تمكن وحيد بمعونة أصدقائه الوطنيين من تدبير لقاء له مع إحسان واعترف لها بحبه وهو يبكي فبكت هي الأخرى واعترفت له بحبها.. ولكنها فوجئت بأن...

الحلقات من ٦ - ١١

ابراهيم ابن عمها يحبها أيضاً، وعند ما صارحها بحبه بكت وقالت: مالناش نصيب فى بعض.. قلبى مع واحد تانى.. ثم إن أمك انجليزية يا ابراهيم، ثار ابراهيم وأبلغ عمه بما حدث فأمر عبدالعظيم باشا كل رجال المباحث بالقبض على حبيب ابنته المجهول، تمر عشرة أعوام ووحيد يهرب من قرية إلى قرية ومن نجع إلى نجع وفى النهاية يعيش مع المطاريد فى الجبل ولكنه يحرص فى نهاية كل حلقة على أن يصعد فوق الجبل ويصرخ: باحبك يا يسرية.. (إسم الدلع لإحسان).

الحلقات من ١٢ - ٢٥

تقوم الثورة ويقبض على عبد العظيم باشا، ولكن يسرية كانت قد تزوجت من ابراهيم بضغط من والدها ومن الحكمدار الإنجليزي الذى هددها بأن تعود انجلترا إلى احتلال مصر، فوافقت ولكن ابراهيم عاملها معاملة سيئة ثم خانها عندما أحب مارجريت ابنة خالته الإنجليزية، وكانت إحسان صابرة على حياتها المؤلمة معه ولكن عندما هاجم الإنجليز مصر فى العدوان الثلاثى تصدت لابراهيم بقوة وقالت له: طلقنى.. أنا لسه قلبى مع وحيد.

حاول أن يسترضيها فطلب من القوات البريطانية أن تنسحب

ملخص حلقات

تليفزيونية

الحلقات من ١ - ٥

بينما كان وحيد البهجورى يقود المظاهرة ضد الانجليز بحماسة، حانت منه التفانة ناحية إحدى المشربيات فتمكن بعينه العسلتين النفاذتين من رؤية العين اليسرى لإحسان فوقع فى غرامها على الفور. الموقف بالنسبة لإحسان كان أفضل فقد استطاعت رؤيته كاملاً واستمعت لهتافه: مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكن.

صوته القوى الملىء بالوطنية زلزل كيانه فأحبته حباً ملك عليها شغاف قلبها، إحسان هى ابنة عبد العظيم باشا عبد الفتاح الذى كان يعمل وكيلاً لوزارة الداخلية ويأخذ أوامره من الحكمدار الإنجليزي وكان يريد تزويج إحسان من ابن أخيه ابراهيم وهو ليس شقيقاً له بل من أم انجليزية تملك ضيعة كبيرة فى

فانسحبت بناء على توسلاته، صادرت الثورة أملاك عبد العظيم باشا فأصبح فقيراً يذهب كل شهر ليصرف مائة جنيه فقط من ملايينه، وهناك يقابل وحيد الذى ردت له الثورة اعتباره وعينته فى لجنة المصادرة والحراسات وأعطته نسبة من الأملاك والأطيان والأموال المصادرة فأصبح غنياً جداً وذات يوم قال لعبد العظيم باشا (سابقاً): مش فاكرنى يا باشا.. أنا الشاب اللى رفضت تجوزه بنتك وبعث المباحث يدوروا علىّ فى مصر كلها.. عشر سنين يا باشا وأنا هربان فى الجبل وانت السبب.

فانهار الباشا باكياً وقال: سامحنى يا بنى.. أنا عبد المأمور، الانجليز كانوا رافضين الجواز دى، لأن الناس اللى بتحب بعض لو اتجوزت، الحب حايماً مصر، والحب قوة قاهرة.. وسلاح قوى فى مواجهة المستعمر.

أصيب وحيد بالدهشة ولكن تأكد من صدق الرجل من سجلات الخارجية الانجليزية.

الحلقات من ٢٦ - ٨٠

يتعرف وحيد على وفيه زميلته فى إدارة الحراسات ولكنه يطلقها عندما يكتشف أنها ليست مخلصه لقضايا الجماهير، فيما بعد يكتشف أنها على صلة طيبة بالجماهير وأنها هى التى أخرجتهم الشارع يوم ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ بعد النكسة فيحبها مرة أخرى ولكن الوقت يكون قد فات فقد تزوجت من شاب تعرفت عليه، فيشعر بحزن طاغ غير أنه كان محظوظاً فقد مات زوجها فى حرب الاستنزاف، فتزوج وفيه بعد نهاية العدة، وفى ليلة الزفاف يفاجأ بيسرية أمامه بعد أن طلقها ابراهيم، يهرب

وحيد من الفرح ويتزوجها، تستولى حالة عصبية على وفيه فتخرج بملابس الزفاف حافية القدمين وتجرى فى الشوارع إلى أن تصل إلى كورنيش النيل، وهناك تقابل ابراهيم وكان يمشى حزينا هو الآخر فيتزوجها.

الحلقات من ٨١ - ١٥٠٠

يكتشف ابراهيم أن وفيه كانت تحب وحيد فعلاً وأنها مازالت تحبه فطلقها فتزوجت من سامى ابن أخت يسرية وهو رجل أعمال صعد إلى السطح أثناء الانفتاح فى الوقت الذى مل فيه وحيد عشرة يسرية فقد كانت نكدية بعض الشئ فطلقها وتزوج من أختها أم سامى ولكن عديله بنت خالة عبد الرحيم كانت منشغلة بتدبير مقلب لسميرة ابنة عزيزة لكى تفوت عليها فرصة الزواج من على ولكن على استطاعت فى اللحظة الأخيرة أن تنقذ سميرة ولكن للأسف كان على قد هاجر إلى استراليا فقابل هناك فوزية وتزوجها ولم يطق حياة المهجر، فعاد إلى مصر هرباً من مطاردة مارجريت (مارجريت تانية غير الأولانية، الأولانية انجليزية ودى استرالية.. مجرد تشابه فى الأسماء) ابنة محافظ «سيدنى» ولكن مارجريت جاءت إلى مصر وواصلت مطاردته غير أنها ذات ليلة قابلت فوزى فأحبته وتزوجته هنا يكون السادات قد حرر سيناء فيغضب خليل ويطلق عنايات ويتزوج من عديلة، يتضح أن مارجريت جاسوسة اسرائيلية وأنها تزوجت من فوزى ليتجسس لها على أسرار كتاب المسلسلات، ولكن أجهزة الأمن كانت تتابعها منذ لحظة نزولها إلى المطار، وفى نهاية الحلقة ١٥٠٠ يقبض عليها الضابط الشاب عفت.. فاكرين يبقى ابن مين؟!

من السماء، وعندما انتهت السهرة، كان قد تخلص تماماً من إحساسه بالهم وبالاكتئاب، ودعهم ولسانه يلهج بالشكر والثناء، سألوه: لعلك سعدت معنا الليلة؟

-أنا أكثر من سعيد، أنا فرح، أشكركم من كل قلبي، فقد أزلتم اكتئابي ورفعتكم عنى أحزاني... صوت المقرئ كان جميلاً لدرجة لا توصف، والجلسة مريحة للغاية، والقوم حولي كلهم طيبون والقهوة لم أشرب مثلها من قبل.

وصفوا له طريق العودة، وأعطوه صرة ثقيلة طلبوا منه ألا يفتحها، إلا عندما يصل إلى بيته، وفي البيت وجدها ممتلئة بالذهب. كما هو متوقع ظهرت عليه آثار النعمة إلى درجة أثارت حقد البعض، سأله أحد الحاقدين عن مصدر هذه النعمة؟ فحكى ببساطة تفاصيل كل ما حدث. لم يضع الحاقد وقتاً وخرج من فوره من المدينة، وسار في الخلاء إلى أن غربت الشمس وسادت الظلمة المكان، سار في كل الاتجاهات إلى أن وجد السرادق، رحبوا به في حرارة فرد عليهم التحية ببرود، جلس متملماً في مكانه، إلى أن انتهت السهرة، سألوه وهو يستعد للانصراف، هل سعدت معنا الليلة؟

أجاب في استعلاء: يعنى... المقاعد لم تكن مريحة وقديمة، وقماش السرادق بهتت ألوانه وتمزقت أطرافه، ثم... من أين أتيت بهذا المقرئ صاحب الصوت الرديء، إن صوته أشبه بثغاء المعين، صوته يصلح فقط للنجوع والقرى الفقيرة، في المرة القادمة اتصلوا بى وأنا أدلكم على مكان تحضرون منه أدوات الفراشة،

الضياء

في ليلة رمضانية ذات شتاء بارد، حكى لى جدتى هذه الحدوتة.. يُحكى أن رجلاً فاضلاً تكاثرت عليه الهموم والأحزان، فشعر بانقباض شديد في صدره جعله يسير في شوارع المدينة على غير هدى إلى أن خرج منها وفوجئ بنفسه تائهاً في الخلاء بين التلال الموحشة. شعر بالرعب بعد أن استولت الظلمة على المكان فزادت من وحشته. غير أنه رأى على البعد أنواراً، بدأت تتضح ملامحها كلما اقترب منها، إلى أن وصل إليها. كان المكان كله يسبح فيه مجموعة كبيرة من البشر في هدوء ورقة. رحبوا به في صدق وقدموا له مشروب القرفة الساخن الذي دفع الدفء في أوصاله، ثم قدموا له قهوة كان بالفعل في حاجة إليها. بدأ يشعر بجمال غريب يتسلل إليه، وكأنه في عالم مسحور، حتى صوت المقرئ كان جميلاً وقوياً وكأنه آتٍ

كما سأحضر لكم مقررًا عظيمًا .. ماذا عن القهوة ؟ لا تؤاخذوني،
فأنا صريح جدًا، البن رديء جدًا، في المرة القادمة سأدلكم على
أعظم محل يبيع البن .. والآن بعد إذنكم فليس لدى وقت ، هل
تتكرمون بإعطائي الصرة ..

سمع صوتًا يقول له : خذ .. وفجأة اختفى كل شيء ، السرادق
والبشر والأنوار، لا شيء ، الظلمة فقط حوله وصفير الرياح وعواء
الذئب، عندها أدرك الرجل الحاقد أن المشهد جميعه كان من صنع
الجن الطيب، لعلهم كانوا يتسلون باختبار البشر، مسكين لقد
رسب في الامتحان، امتحان العدل والجمال، لم يكن عادلاً
ولم يكن جميلاً.

ستقابل في حياتك كثيرين عاجزين عن تقييم أى إنجاز، حتى
لو كان من صنع الجن، ستراهم يتفرغون لتشويهه والنيل منه،
لافتقارهم إلى العدل والجمال.

رفض الخيار

أنا شديد الإعجاب بهؤلاء الذين يرفضون علناً كل ما وافقوا
عليه سراً. وأخيراً جاء الوقت الذى أتشجع فيه وأعلن بصوت
مرتفع وبكل وضوح ما أرفضه. ارتديت ملابسى ونزلت من
فورى إلى كورنيش النيل، واجهت النيل بقوة، وصحت فيه: أيها
النيل.. أنا أرفضك.

يبدو عليه أنه لم يسمعنى فصحت فيه بصوت أقوى: ألم
تسمعنى أيها النيل؟! أنا أرفضك بكل قوة.

من الواضح أن النيل قد فقد حاسة السمع، بعد أن طعن فى
السن، عمره الآن أكثر من مائة ألف عام.

حدقت فى أمواجه التى تمضى فى طريقها فى هدوء ورقة، ثم
تركته ومشيت. ذهبت إلى محطة سكك حديد مصر، وجدت
عشرات القطارات، وعشرات الأرصفة، وعشرات آلاف الركاب،

إلى رافضين، تركت السينما ومشيت فى شارع «معروف» بوسط البلد، كان هناك محل كشرى شهير، امتلأ بالعمال وصبيان الميكانيكية، كانوا يتأوهون من الشطة، بينما رائحة «التقلية» تزكم الأنوف، ومع ذلك كانوا جميعاً يأكلون فى شهية، صحت فيهم : أيها السادة، أنا أرفض هذا الكشرى وهذه التقلية وتلك الصلصة .. وأرفض الطريقة التى تأكلون بها .. وأرفضكم .

الأوغاد كانوا منهمكين فى الأكل فلم يسمعونى، أخرجونى من المحل فى رفق، وقفت أمام أقرب ميكانيكى، كان يعمل بهمة ونشاط فى أحد المواتير، قلت له : أنا أرفض هذا الموتور، وأرفض هذه السيارة وأرفضك . التفت لى الرجل مبتسماً، وقال : اقعد خذ شاي يا بيه.

أخيراً سنحت لى الفرصة أن أرفض شيئاً ملموساً، فصحت : أنا أرفض دعوتك على الشاي.

قال : خلاص يا بيه .. تشرب عصير قصب ؟!

فصحت : وأرفض عصير القصب.

مرة أخرى قال بهدوء : مش عاوزينك تزعل يا بيه.

أوضحت له أنى لست غاضباً وأننى أعلن رفضى فقط، فقال بهدوء : طب لو سمحت سيبنا فى حالنا .. ورانا شغل.

أمام محل الخضراوات المجاور فاجأنى صاحبه بالسؤال : هل سترفض كل هذه الخضراوات؟

فأجبتة : ليس كله .. لست أرفض خيار الصوب، ولا الخيار البلدى .. أنا فقط أرفض الخيار العسكرى.

تسلقت عموداً أوصلنى لمنتصف السقف الحديدى، وجلست ثم صحت فيهم بصوت كالرعد: أيتها القطارات، إننى أرفضك .. أيها البشر، إننى أرفضكم.

لن يسمعنى أحد، فالقطارات تصدر ضجيجاً عالياً، والبشر أيضاً يتصايحون ويتقافزون كالقردة، لا أحد يسمع رفضى له، خرجت من محطة القطارات، وتوجهت إلى موقف تاكسيات الأقاليم. مولد يضج بالنداءات والصيحات، الكل يصيح، قفزت فوق سطح ميكروباص وصحت: أيها الناس .. أيها الناس.

توقفوا جميعاً عن الصياح ونظروا إلى فى دهشة، فواصلت : ياركاب الأقاليم .. أيها الذاهبون إلى القرى والمراكز والمدن .. يامن انشغلتم بمصالحكم الخاصة عن القضية العربية .. أنا أرفضكم، وأنت أيتها الميكروباصات والتاكسيات، إننى أرفضك وأرفض وجودك.

أنزلونى برفق من فوق الميكروباص وانشغل كل منهم بشأنه، لماذا لا تأخذ الناس كلماتى على محمل الجد؟! شعرت بملل وبيعض اليأس، ذهبت إلى دار للسينما كانت تعرض فيلماً أمريكياً، فشلت فى العثور على مقعد، قلت لمدير السينما : أنا أرفض السينما الأمريكية بشكل عام، وأرفض هذا الفيلم بوجه خاص .. وأرفض أن يتدافع مئات الألوف من البشر لرؤيته.

رد على باسمًا بهدوء : وأنا أيضاً .

شعرت بارتياح، هذا هو واحد على الأقل يشاركنى الرفض، لو أعطيت الفرصة والوقت الكافى سوف أحول كل شعوب الأرض

فقال : لا أحد يقبله ..

أشعرتنى إجابته بارتياح، فمضيت فى طريقى وأنا أفكر فى أن دعوتى بدأت تجد صدق، هذا ينعش أملى فى الانتقال من مرحلة الرفض إلى مرحلة التصديق، وبالفعل تصديت بكل ما أملك من قوة لدرجة أن الصدا غطى كيانى كله.

ترانزيتور

منذ نصف قرن أو حول ذلك كان مقياس النضج والعظمة والجمال هو الإفراط فى الطول والعرض. وفى مجال المديح يقال عن الرجل أنه «راجل طول بعرض» وهو أيضاً ما كان يقال فى وصف المرأة المتميزة. لذلك كان من البديهي أن يكون هذا المقياس هو السائد فى السينما المصرية. تذكر معى حجوم نجوم ذلك العصر، حسين صدقى، أنور وجدى، زكى رستم، يوسف وهبى، سراج منير.. كانوا جميعاً يصلحون لأدوار المصارعين. وعلى جبهة المرأة، كانت هناك، تحية كاريوخا، ليلى مراد، سامية جمال، نعيمة عاكف، مديحة يسرى.. جميعهن يتسمن بالطول الفارع مع امتلاء ملحوظ.

وعلى جبهة الغناء والطرب كان الحجم الكبير هو أيضاً العنصر الغالب على مطربى ومطربات ذلك العصر (دع محمد عبد الوهاب

لاشك أن صاحب هذا الاختراع كان يعاني من الشعور بأن الدنيا قد ضاقت بمن فيها ومن عليها لضخامة المباني والمصانع والسيارات والبشر لذلك قرر أن يجعل الحياة أكثر سهولة بأن تكون الأشياء أصغر حجماً، فبدأ بجهاز الراديو.. بعدها بدأ السباق تحت شعار «كن الأصغر تكن الأنفع» هل تعرف أن جهاز الفيديو كاسيت الذي أصبح في حجم الكتاب متوسط الحجم كان يحتل منذ أربعين عاماً دوراً بأكمله في مبنى التليفزيون. هل تعرف أن جهاز الكمبيوتر الصغير كان ذات يوم يحتل عنبراً كبيراً ويقوم على تشغيله عدد كبير من البشر المتخصصين؟

ولكن هذا الاختراع «التصغير» بما أنشأه من اتجاه جديد في التفكير يشبه كل دواء ناجح لابد أن تنتج عنه آثار جانبية ضارة، إن الأصل في الترانزستور هو الحجم الصغير والأداء الأعظم، غير أن بعض الناس تصور أن «التصغير» مطلوب في حد ذاته بغض النظر عن حجم الأداء المطلوب. فكانت النتيجة أن تحولوا هم أنفسهم إلى ترانزستورات تمشي على قدمين..

هكذا - في تصوري - ظهرت الأفكار الصغيرة والأفعال الصغيرة والفنون الصغيرة والسياسات الصغيرة.

وهذه نتيجة طبيعية فالبشر أحياناً يخترعون أدوات على شاكلتهم ثم يتأثرون بها إلى الدرجة التي تجعلهم يقلدونها بغير وعي فتكون النتيجة أن يصبحوا على شاكلتها في ما بعد.

ومع كل ذلك فأنا لا أعطي للحجم نفسه أية أهمية، الأهمية القصوى في نظري هي الوعي الصحيح بأبعاد هذا الحجم وبذلك

وأم كلثوم بعيداً عن الموضوع).. عبد الغنى السيد، محمد عبد المطلب، عبد العزيز محمود، محمد قنديل.. إلخ.

وفي السينما الأمريكية كان أبطال ذلك العصر هم، كلارك جيبيل، جون واين، تايرون باور، برت لانكستر.. أما البطولات فكان جميعاً طول بعرض مثل ريتا هيوارث وكيم نوفاك.

وفجأة أو بتدريج غير ملحوظ بدأ عصر «التصغير»، اختفى العمالقة أصحاب الحجوم الكبيرة وبدأ عصر النجوم ذوى الأجسام دقيقة الحجم إلى أن وصلنا إلى الكوميديان الجديد محمد هنيدي مروراً بعادل إمام ومحمد صبحي.

اختفى حسين صدقي واستولى على مكانه أحمد زكي، كما اختفى كلارك جيبيل واستولى على مكانه داستين هوفمان وعلى الجبهة النسائية في مصر ظهرت سعاد حسنى لترث كل النجمات السابقات. لم تعد النجومية وثيقة الصلة بالطول والعرض بل بالإبداع النابع من الحجم العادي (ستاندرد).. السؤال هو: متى بدأ هذا التحول في أفكار البشر، أقصد الاتجاه إلى اختصار الطول والعرض؟

أنا أعتقد أن أفكار البشر تتغير عقب الاكتشافات العلمية والمتغيرات التكنولوجية، إن كل اختراع جديد على وجه الأرض يعقبه بالحثم تغير في سلوك البشر وفي طريقتهم في التفكير، والمسئول في رأيي عن عنصر «التصغير» في السينما العالمية والعربية والحياة بشكل عام هو ظهور اختراع جديد هو «الترانزستور».

نعرف المساحة التي يجب أن نشغلها على الأرض وبين البشر.. إن عدم الوعي بالحجم الحقيقي يترتب عليه بالضرورة العجز عن إيجاد المكان المناسب على الأرض.

أعطيك مثلاً، لنفرض أنك تعودت منذ سنوات طويلة على قيادة سيارة صغيرة وفجأة لسبب ما طُلب منك أن تقود لوري، من المؤكد في هذه الحالة أنك ستتهشم سيارات الآخرين لأنك لم تكتسب بعد الوعي بأبعاد حجم هذا اللوري.

إن الوعي الزائف بأن حجمنا يفوق حجم الآخرين سيترتب عليه فقط الاصطدام بهم والعجز عن إيجاد مكان لنا بينهم.

ابن البقرة..

ولحمها

إليك نكتة قديمة:

اثنان من وكلاء الوزارات - عندما كان وكيل الوزارة له «شنه ورنه» - تاهوا في الصحراء، الجو حار جداً، أحدهما بدأ يتخفف من ملابسه، خلع الجاكيت وربطة العنق، بعد قليل خلع الحذاء والجوارب، ثم خلع القميص والبنطلون ثم خلع ملابسه الداخلية.

قال زميله مندهشاً: معقول يا باشا تمشي كده عريان بلبوص؟

- يعني هو فيه حد حاشوفنا؟

طب لابس الطربوش ليه؟

- يمكن حد يشوفنا.



في علم النفس يسمون هذا السلوك «Ambivalence» يعني أن تجذب وأن تدفع في الوقت نفسه فتكون محصلة جهدك صفراً

كبيراً. ولكنك قد تفعل ذلك مستنداً لحكمة التوازن الشهيرة، ولكنه فى واقع الأمر إخلال بالتوازن، هو محاولة للحصول على لبن البقرة ولحمها معاً، هذا هو المستحيل، كما أنه من المستحيل أن تخدم سيدين.

إذا فكرت أن تشرب اللبن، فاستبعد من البداية أن تذبح البقرة، وإذا قررت الحصول على شرائح اللحم، فوطد نفسك على أنك ستشرب لبناً جافاً من السوبر ماركت.

والتوازن ليس هدفاً فى حد ذاته، بل هو وسيلة للتقدم. فأنت عندما تملأ إطارات سيارتك بدرجة محددة، الجهة اليمنى مماثلة للجهة اليسرى، فإنك بذلك تطلب الحصول على الأمان أثناء القيادة إلى الأمام.

فى كل مجتمع وفى كل مراحل التاريخ توجد قوى تقدم وقوى تخلف، هذا أمر ليس جديداً أو مستغرباً أو شاذاً، هذه هى طبيعة تجمعات البشر شئنا أم أبينا، ولكن السؤال دائماً هو.. مع من تقف القيادة السياسية؟ على المستوى العملى المسألة ليست بهذا الوضوح فكل القوى السياسية، تزعم أنها تنشد التقدم، حتى كلمة التقدم نفسها هى الأخرى لا تخلو من شبهات. فقد عشنا لسنوات طويلة فى أنظمة جماعية تصف نفسها بالتقدمية وتصف الآخرين بالتأخر والرجعية. كلمة تقدمى كانت تطلق فقط على المتحمسين للأنظمة الشمولية، وكانت تهمة العمالة للامبريالية العالمية فى انتظارك إذا شوهدت ترتدى قميصاً جيداً، أما إذا شوهدت بالصدفة تأكل كباباً، فهذا دليل لا يقبل الشك، على ميولك

البورجوازية، وخروجك على الإجماع، كما لو أن العدل يحتم أن تدعو تحالف قوى الشعب العامل، ليتناول معك ربع كيلو الكباب. أما كلمة الديمقراطية فمن الطريف أنها ارتبطت لسنوات طويلة بالجمهوريات الشعبية الشمولية. فكيف نتعرف الآن على معنى التقدم وسط غابة الكلمات والمصطلحات والمفاهيم المحيطة بنا؟ ما هو التقدم الذى نقصده؟ ما هو محتواه وعلاماته ودلائله.

أتصور أن التقدم هو الحفاظ على حقوق الإنسان الفرد، وإتاحة الفرصة له للاستفادة من كل طاقاته المبدعة فى كل المجالات وحمايته من الآخر، وحماية الآخر منه بقوة الدولة المستندة للفصل الصارم بين السلطات. الحرص على البيئة والحفاظ عليها من القبح والتلوث، وإذا كان على الأرض مواطن يستحق لقب المواطن رقم واحد فلا شك أنه البيئة. أما التخلف فهو ضد كل ذلك. الحجر على حرية الإنسان فى التفكير الحر، الحجر على نشاطه المثمر لنفسه وللآخرين، حضه على كراهية الآخرين والفرز منهم، تمهيداً لعزله عن العالم، دفعه دفعاً إلى احتقار نفسه واحتقار الحياة، بذلك يفقد حماسه إلى الفعل النبيل، فلا ينشغل إلا بالعدوان على الناس بالفعل أو بالقول أو بالفكرة.

التقدم هو أن تعمل كل القوانين واللوائح، على تشجيع المنافسة الشريفة والإتقان. فلا شك أننا نكون أكثر إنسانية وتقدماً عندما نكون أكثر إتقاناً.

للتقدم حزمة مفاتيح، وللتخلف حزمة أخرى وكلتا الحزمتين يحتفظ بهما رجل الدولة. التقدم نفسه موجود فى مخازن البشر

داخل عقولهم وقلوبهم، نفس الشيء يصدق على التخلف أيضاً، ولكن المفاتيح نفسها موجودة في عهدة رجل الدولة، لذلك فالتقدم أمانة في عنقه أمام الله وأمام البشر وأمام التاريخ. عليه أن يزيح من أمامه علامات المرور الحمراء، وأن يمهّد له الطرق السريعة، وأن يزيل منها المطبات الطبيعية والصناعية. إن عظمة رجل الدولة لا تتحقق إلا بإتاحته الفرصة للتقدم أن يتقدم، غير مطلوب من رجل الدولة القضاء على دائرة التخلف، فهذا ليس متاحاً لمخلوق على وجه الأرض، المطلوب منه فقط العمل الدائم - بكل لطف ورقة وحزم - على تقليل مساحة دائرة التخلف، الأمر الذي سينتج عنه حتماً توسيع دائرة التقدم. أما وضع المفاتيح في حزمة واحدة، والعمل على فتح أبواب التقدم، ومعها أبواب التخلف في وقت واحد، بدعوى التوازن والاستمتاع بالصراع بين النهار والليل، فهي معركة محسومة لصالح التخلف ليس لضعف قوى التقدم، ولكن لخصائصها البشرية، التي تتطلب فترة حضانة طويلة. كم يحتاج الإنسان من وقت ورعاية لينمو وكم يحتاج الميكروب؟

كم من الأعوام تحتاج المجتمعات لصنع ملحن عبقرى واحد، أو مهندس عبقرى واحد، أو شاعر واحد؟، وكم من الأعوام تحتاج لصنع شخص متخلف واحد يذبح أهل قرية أو نجع؟ عندما تضيق دائرة التقدم، وتتسع دائرة التخلف، سيكون من الصعب عليك العثور على سباك ماهر، بينما ستجد بسهولة عدداً كبيراً من البشر ماهرين كل المهارة في تمزيق أجساد الأبرياء.

بعد آخر غير الازدواجية تشير إليه النكته، هو التمسك الذي لا معنى له بالرمز نضعه فوق رؤوسنا، بينما نحن نعيش في صحراء الدنيا عراة تائهين. قيلت هذه النكته في الأربعينات، عندما كانت الدعوة لخلع الطربوش تمثل جريمة في حق الوطن والأمة، بوصفه من «الثوابت» التي لا يمكن التخلي عنها. أنا شخصياً ضربت علة ساخنة في مدرسة «دمياط الابتدائية»، لأننى ذهبت ذات يوم بدون طربوش، والآن تكال لى ضربات عديدة، لإصرارى على التخلص من كل أنواع الطرابيش، طربوش واحد فقط لن أخلعه إلى الأبد هو كرامة الإنسان الفرد وحرية.

بعد) كانت التهمة هي.. الازعاج، الشغب، القيام بفعل فاضح. طبعاً نحن نعرف ما هو الازعاج، ونعرف أيضاً الشغب وإن كنا لا نتصور إمكان صدورهما عن الشبان في رحلة إلى حديقة عامة على النيل، ترى من شاغبوا ومن أزعجوا؟ تماسيح النيل؟ أم اشجار الحديقة ونباتاتها؟ غير أننا سنتوقف باهتمام أمام التهمة الأخيرة لنكتشف أن ارتداء الفتيات للبنطلون الطويل تعتبر فعلاً فاضحاً، ليست الفساتين القصيرة، بل البنطلونات!! هكذا تم جلد تسع فتيات جامعات، وقع نظام الحكم على أجسامهن ببصماته الكريمة متجسدة في ٤٠ جلدة. وتم تنفيذ الحكم أمام قاعة المحكمة بعد الحكم بلحظات، بعد أن رفض القاضي الطلب الذي تقدم به المحامي بتأجيل التنفيذ إلى أن تثبت فيه محكمة الاستئناف وهو ما يحتمة القانون. وكأنه يخشى أن تلغى محكمة الاستئناف الحكم أو تعدله أو تخفضه أو يصدر حكمها بالبراءة. لقد التزم القاضي بالقانون عندما أصدر حكمه بالجلد ثم قام بحماسة منقطعة النظير بانتهاك نفس القانون عندما رفض تأجيل التنفيذ إلى ما بعد صدور الحكم في الاستئناف، أي أنه ينفذ من القانون ما يتفق مع ما يريده.. هو.. وبذلك يخرج بالقضية من ساحة القضاء إلى ميدان التحليل النفسي، شاغلاً إيانا بالسؤال الشهير الذي نحاول دائماً الهروب من الإجابة عليه: لماذا يكره بعض الناس المرأة إلى هذا الحد؟ أم إن السؤال هو: لماذا يكره بعض الناس الاستمتاع الشرعي في الحياة في أبسط صورة له وهو القيام برحلة إلى حديقة على النيل إلى الدرجة التي تستوجب العقاب

حديقة على النيل

خبران يعلو أحدهما الآخر في صحيفة، مصدر الخبرين بلد عربي أفريقي يزعم أهل الحكم فيه أنه إسلامي، فيما الخبران يشيران بوضوح إلى استحالة تصديق ذلك. الخبر الأول يقول إن (١٣) مواطناً ماتوا عطشاً وهم في طريقهم إلى ليبيا بحثاً عن فرصة عمل بعد أن تعطلت بهم السيارة في طريق صحراوي غير ممهد وليس به علامات إرشادية) والخبر الثاني يقول (٤٠ جلدة لـ ٢٥ طالباً أدينوا بارتكاب «فعل فاضح») هؤلاء الطلاب كانوا في رحلة إلى حديقة مطلة على النيل عندما وصلت شرطة النظام العام فقبضت عليهم وفي اليوم التالي مثلوا أمام المحكمة التي حكمت بجلد كل منهم ٤٠ جلدة ودفع غرامة تتراوح بين ٢٥ - ٥٠ ألف جنيه (لا تستهول الرقم فهو ليس أكثر من ١٠ - ٢٠ دولاراً، ولتحمد الله على أن الثوار أصحاب الفضيلة لم يحكمونا

بالجلد النافذ فوراً بعد صدور الحكم من محكمة الدرجة الأولى.. هؤلاء الثوار الذين يزعمون أنهم حريصون على «إرشادك» إلى الفضيلة والحياة الفاضلة، ويجلدونك لأنك قمت برحلة إلى حديقة على النيل، هم أنفسهم الذين لا يهتمون بوضع علامات إرشادية في الصحراء ترشدك إلى الطريق السليم فتتوه وتموت عطشاً.

منذ حوالي ٤٠ عاماً قال لي صديق مثقف من بلد الفتيات المجلودات: نحن مختلفون عنكم، نحن لا نطبق الديكتاتورية، نحن شعب متمسك بالحرية ونرفض أن يعتدى عليها أى نظام حكم.

وكان صادقاً، كانوا كذلك بالفعل، إلى أن خرجت عليهم المدرعات تشق للشعب طريقاً جديداً إلى الجحيم. ولما كان مصير الحكم العسكرى الحتمى هو الانهيار لعجزه عن التنمية الحقيقية، لذلك كان لابد أن يتحالف مع نظرائه الأتقياء ليتمكنوا فى النهاية من تحقيق الهدف العظيم وهو جلد الفتيات الصغيرات لأنهن ذهبن فى رحلة إلى حديقة على النيل مرتديات البنطلونات.

المقموصون

أقف طويلاً أمام الألفاظ الغريبة محاولاً التعرف على أسرارها، فإنه من المستحيل أن ي اخترع الجنس البشرى كلمة جديدة إلا إذا كان فى حاجة إليها لى يصف بها شيئاً أو فعلاً تعجز مفرداته الجاهزة عن وصفه.

فاللغة هى «عدة» البشر التى يعملون بها فى حياتهم اليومية، فمثلاً اخترع الإنسان «المفك» عندما وجد أنه فى حاجة إليه، واخترع المشرط عندما احتاجه فى الجراحة أو النشل. هكذا اللغة، فلماذا يا صديقى اخترع الناس فى مصر كلمة مقموص؟ نحن نقول فلان مقموص من علان.. فماذا نعنى بذلك؟

- يا أخى، اطلع من نافوخي، هو إنت دايماً تعمل من الحبة قبة وتغوص فى أعماق المحيطات لتستخرج طوبة أو زلطة لتخضعها للبحث الفلسفى.

■ نعم ، لأن عقلى يعمل طول الوقت .. هذه الزلطة أو هذه الطوبة، ما هى وظيفتها فى أعماق المحيط؟ ولماذا هى هناك.. وبالتالي سأواصل موضوع البحث.. وسأتحاور معك.. فأنا لست مضيعا، أنا محاور.. ما هو المعنى العلمى لكلمة مقموص؟

- مقموص يعنى زعلان..

لماذا اخترعها إذن العقل الجمعى إذا كانت كلمة زعلان تؤدى نفس المعنى؟ لا يا عزيزى.. الزعل ليس هو «القمص» والمقموص ليس هو الشخص الزعلان.

- معناها إذن غضبان.

الغضب يأتى نتيجة لأسباب واضحة ويزول بزوالها.. ولكن القمصه أسبابها دائما غامضة.. تأمل معى هذه الصفات.. زعلان، غضبان، مستاء، متكد، متنكد، متضايق، قرفان.. ولكن كل هذه الصفات وغيرها لا تكفى لفهم القمصه والشخص المقموص.

- طيب، تسمح بقى تشرح لى.. لأنى بدأت أتقمص منك.

■ ها أنت تقترب من المعنى المقصود.. القمصه نوع من الضيق غامض المصدر.. يشيع حالة من النكد والكدر فى العلاقات الإنسانية.. أما فى العلاقات السياسية فقد يؤدى لكارثة.

- من الواضح أنك تتعامل مع السياسة بشكل جاهل تماما.

■ إننى أشكر لك هذا المديح.. إن أخطر شىء فى العمل السياسى هو الآراء والأفكار التى تبدو عبقرية.. أما التعامل مبتدئا من نقطة الجهل فهو طريق السلامة.. لأنك عندما تقول أنا أجهل هذا الموضوع فلا بد أنك ستسارع بالحصول على العناصر

والمعلومات التى تزيدك به علما.. واللاعب أمامك خصوصا إذا كان حليفا سيزداد احترامه لك عندما تقول له: سيدى.. أريد أن أفهم الأسباب التى تدفعك لكذا.. وكذا.. كما أريد منك أن تفسر لى موقفك من كذا.. وكذا.. لأنى عاجز عن فهمه..

- نرجع للقمصه والمقموصين.

■ حاضر.. أى شخص توجد مشكلة حقيقية بينك وبينه ويتمتع بدرجة من النضج الحياتى والسياسى.. سيجلس معك فى هدوء لمناقشة أبعاد هذه المشكلة.. قد يكون غاضبا منك أو مستاء أو متكدرا، ولكنكم بالقطع ستصلان لحلول لهذه المشكلة.. ولكن - بعد إذنك - تعال ندخل فى المشكلة الأخيرة التى حدثت بين مصر وأمريكا..

- لم توجد مشكلة بين مصر وأمريكا.. ولا توجد مشكلة بين مصر وأمريكا.

■ جميل.. هى أزمة إذن..

- لا.. ليست هناك أزمة، ولم تكن هناك أزمة.

■ إذن لا طرف غاضب من الآخر.

- طبعاً..

■ ولا أحد مستاء من الآخر..

- طبعاً..

■ جميل.. بماذا تسمى إذن هذا الذى حدث..؟

- مصارين البطن بتتخانق...

أشكر لك ذكر هذا المصطلح الشهير الذى اخترعه المصريون

كعملية تبرير رائعة لاحتواء المشاكل التي يريدون تجاهل أسبابها... ولكن يا عزيزى عندما تتصارع الأمعاء وتكرب ويحدث المغص.. فلا بد أن هناك سببا لذلك.

- نعم، هو... هو...

■ لا تحاول تفادى الكلمة.. هو القمصنة.. كنا مقمصين من أمريكا.

- إحنا اللي كنا مقمصين ولا همه؟

■ براقو.. أى قمصة تنتج عنها قمصة مضادة.. ولذلك نقول فلان وعلان مقمصين من بعض.. ولعل من أطرف الأمور أن تستمع لحوار بين شخصين مقمصين، وهو يدور على النحو الدائرى التالى:

- مالك؟!

■ مالى إيه..؟ شايفنى مالى يعنى؟

- لا يعنى.. شايفك كده مش زى عوايدك..

■ قصدك إيه مش عوايدى..؟ تسمح بقى تفهمنى هى إيه

عوايدى؟

- إنت زعلت..؟

■ حازعل من إيه..؟ إلا إذا كنت بقى شايف إن كلامك يزعل..

إفرض إنى زعلت..

- من إيه؟

■ حايقول لى من إيه؟ قال يعنى مش عارف من إيه؟

- والله ما أنا عارف..

■ لا يا شيخ..

- الله.. إنت عاوز تعملها أزمة؟!

■ مش أنا اللي عاوز أعملها أزمة.. إنت اللي عاوز تعملها..

- أنا؟.. والله يا أخى ما أنا غاوى أعمل أزمات ولا نيلة.

■ إيه حكاية النيلة دى كمان؟

- الله.. هو إنت حاتمك لى على الواحدة؟

■ آمال يعنى إنت اللي تمسك لى.. خلاص يا سيدى.. مافيش

أزمة ولا حاجة.. ماتحاولش إنت بقى اللي تعملها.

- تانى حايقول لى أنا اللي باعملها..

آمال قصدك أنا؟

- خلاص يا سيدى مافيش حاجة.. والله ما فيه حاجة..

وينتهى الموقف، ولكن هل انتهى حقا؟ الإجابة هى: لا..

لسبب بسيط.. القمصنة هى انعدام الشجاعة العقلية الكافية

لمصارحة الطرف الآخر بحقيقة المشكلة.. واللجوء لاستخدام

الكلمات المجاملة أو التى لا معنى لها.. فلا يتم اقتحام المشكلة

ولكن تأجيلها لتتفجر مرة أخرى فيما بعد.. إذن المقمص هو

شخص مستاء منك لأسباب سيعجز حتما عن شرحها لك لعجزه

عن المواجهة، ولذلك نقول: خذ بالك وإنت بتتعامل مع فلان.. أصله

من النوع اللي بيتقمص.

إذن هناك نوع من البشر «قمّاص» بحكم تركيبته النفسية، مبدأ

اللذة عنده مرتبط بالعكنة عليك والحصول على اهتمامك بشكل

سلبي، ولذلك لا توجد على الأرض طريقة لإرضائه وإشعاره

بالارتياح، فحتى عندما تتوفر لديه الشجاعة للمصارحة، لن يصارك بحقيقة المشكلة إلا بعد مراوغة طويلة يضمن بها أنه قد عكن عليك وعلى أهلك.. قد لا تصدق هذا التحليل.. ولكنك إذا كنت تعتقد مثلى أن كل ما يدور من عمليات فى العقل ينظمه مبدأ اللذة فستوافق على ما أقول.

– وإذا لم أوافقك؟

■ يبقى حاتمص منك...!

العاطل

مع الباطل

بالعبقرية المصطلح الشعبى وقدرته على التكثيف والإيجاز، إنه لم يستخدم حرف الواو، لم يقل العاطل والباطل بل استخدم (مع). فواو العطف تفيد الإضافة والتجاور فقط بينما (مع) تفيد العطف والتجاور والمساندة والتأييد والدعم والتبعية أيضاً، لذلك سنجد أن الكلمة الوحيدة المشتقة من مع، هى كلمة (معية). فنقول ظهر فلان وفى معيته علان وترتان، أى أنه حيث يظهر الباطل لابد أن يكون العاطل معه وفى معيته مؤيداً ومسانداً.

راقب كل الاجتماعات التى يتجمع فيها «العواظلية»، الذين لا عمل حقيقياً لهم، سوى مساندتهم للاستبداد، ستلاحظ على الفور أنهم تجمعوا حول الباطل وأجمعوا عليه، هم دائماً فى معية الباطل.

أما الشخص العادى الذى يعمل عملاً مفيداً للآخرين ولنفسه،

فهو محصن بالحتم ضد الباطل، يتساوى في ذلك البائع الجائل في عرض الطريق، ورجل الأعمال أو رجل السياسة المخلص لمصالح البشر، وسيدة البيت والمرأة العاملة والكتاب المبدعون الباحثون عن الحق والحقيقة.

أما المحرومون من الموهبة في كل المجالات، فلا بد لهم من التجمع مع الباطل وعليه، ليصدروا البيانات الصارخة المتشنجة لنصرة الزور. لا يوجد على الأرض مكان آخر يمارسون فيه تعاستهم الناشئة عن الفراغ الذي يملأ قلوبهم.

لذلك لابد للمجتمعات لكي تظل صحيحة البدن، أن تتيح لأبنائها فرصاً واسعة للعمل والإجادة، لابد من تمجيد العمل النافع، لابد أن نرى أبطال المسلسلات التليفزيونية وهم يعملون، وأن نركز على ذلك، وأن تكون مشكلاتهم الدرامية نابعة من علاقات العمل. خصوصاً في مسلسلاتنا التي تتناول حياة أجدادنا الأقدمين، ستجد أنهم انقسموا إلى جماعتين: جماعة الخير وجماعة الشر، الأخيار منهم يبتسمون في عذوبة، ويهمسون في رقة، والأشرار لهم أصوات غليظة، ونبرات وحشية، ونظرات شريرة، هم جميعاً يتبارزون، يهمسون، يتصايحون، يتآمرون، يحبون، يكرهون، ولكنني أتحداك أن تعرف ماذا يعمل أى منهم. لم يحدث أن فكر كاتب أو حرص مخرج على أن نرى أحد هؤلاء الناس ولو في لقطة واحدة وهو يعمل حدادا، أو بناء، أو راعياً للغنم، أو تاجراً، مع أننا نعلم أن أجدادنا الأخيار منهم والأشرار، لم يكونوا بالقطع عاطلين عن العمل.

ومن عبقرية العقل الجمعى فى اللغة العربية، أنه اشتق كلمة البطالة من الباطل للإيحاء بخطورتها.

أما أخطر أنواع البطالة، فهى تلك التى نسميها (بالمقنعة)، أى ذلك الباطل الذى يرتدى قناع الحق، يجسده هؤلاء الذين تراههم فى الدواوين، وفى المكاتب، ولا هم لهم غير تعطيلك وتعويقك وتعذيبك، بدافع من الضالة والإحساس المر بأنه لا وظيفة حقيقية لهم. أما أخطر أنواع البطالة المقنعة فستجده فى التنظيمات السياسية الوهمية، والأحزاب الورقية والجمعيات، والنقابات، التى تضم غير الموهوبين. كما لا يجب أن ننسى العاملين فى الصحف المصطنعة، هم جميعاً يمشون على غير هدى فى شوارع الدنيا، بحثاً عن الباطل لتأييده.

أريد أن أقول لك: عندما تجد سرادقاً، جمع عدداً كبيراً من البشر المتشجنين، وانتهى بإصدار بيان يؤيدون فيه الديكتاتورية والخراب والغلبة والقسوة، فليس معنى ذلك أنهم أشرار، هم فقط مجموعة من «الصيع».

من ذلك، أنا فاضلى غداً وبعد غد.. أو أنا فاضلى بعد الظهر، إشارة إلى غياب العمل أو انتهائه، وفى أوقات الغضب تقول لمن يحاول تعطيلك: هو أنا فاضلى لك؟

يقول المثل بوضوح أن هذا الفاضلى الذى لا يجد ما يفعله والذى لا يشغله أمر حقيقى سوف يعين نفسه قاضياً عليك بالرغم من أنك تعلم وهو أيضاً يعلم أنه ليس قاضيك الطبيعى. هو فاضلى، انزع الغطاء عن جوفه وانظر جيداً بداخله، لن تجد جراماً واحداً من العدل أو النزاهة العقلية، لن تجد سوى الفراغ، ذلك الفراغ فى النفس والقلب الذى لا يملأه سوى العدوان. ولما كان العدوان على الآخر يتطلب قدراً من الجرأة التى يفتقر إليها الفاضلى لذلك نراه يقوم خلصة بإضافة نقطة إلى حرف الفاء محولاً إياها إلى قاف ليمارس عدوانه على هيئة أحكام تسبب الألم للآخرين، هذا بالتحديد ما يرغب فيه الفاضلى، أن يؤلم الآخرين.

إن (عواطفية) الأفكار ومعهم (عواطفية) الشارع هم الركيزة الحقيقية لأى حكم ديكتاتور لأنه بما يمثله من قدرة هائلة ومؤكدة على العدوان يجسد مثلهم وقيمهم العليا، آلام الناس وضياعها يشعروهم بالارتياح ولا يشعرون بالطرب إلا عند سماع آهات البشر، وهذا هو بالتحديد ما يوفره لهم الديكتاتور.

الفاضلى

يعمل قاضى

لم يترك المثل الشعبى أية مساحة فى السلوك البشرى إلا وغطاها بحكمته وتوصيفه المدهش. ففى تركيز معجز، فى كلمات ثلاث فقط جعلنا نتعرف بوضوح على الدوافع الحقيقية عند هؤلاء الأشخاص الذين عيّنوا أنفسهم قضاة علينا ثم انطلقوا يصدرون الأحكام على عباد الله ويوزعون باليمين والشمال أحكامهم بانعدام الوطنية أو انعدام الأخلاق أو يدهمونهم بتهمة مروعة هى معصية الخالق غير مستندين لقانون أو دستور أو عرف أو خارجين عن ذلك جميعاً.

وكلمة فاضلى فى الحديث اليومى تعنى الفراغ: تقول: كوب (فاضلى) أو دخلت المكتب فوجدته (فاضلى) أو.. هذا الكلام (فاضلى) أى لا يحتوى على قضية حقيقية، أو تكلمت مع فلان فوجدته (فاضلى) كما تستخدم أيضاً بمعنى عدم الانشغال بشيء،

ولما كانت الجرائم فى الحوادث القديمة بالنسبة لى لا تموت بالتقادم وتظل حية فى ذهنى وكأنها حدثت بالأمس، وبالتالى فإن محضر التحقيق فيها يظل مفتوحاً يبحث عن أسبابها الحقيقية وليست المعلنة، لذلك قمت باستدعاء الامبراطور القاتل فى ذهنى على عادتى فى استدعاء من أشاء وقتما أشاء، حضر الرجل على الفور مرتدياً رداءه الإمبراطورى ومحاطاً ببعض حاشيته. رحبت به فى برود وقدمت له نفسى بوصفى محققاً مستقلاً أبحث عن الأسباب الخفية وليس المعلنة لجرائم البشر غير المنطقية التى يرفضها العقل، وفتحت المحضر:

س: سيدى الإمبراطور.. لأننى أرفض تصديق كل ما يقال لى، لذلك اسمح لى بأن أقول لك بأننى أرفض تماماً تصديق السبب المنطقى المعلن من أنك قتلت سنمار لكى تمنعه من بناء قصر مشابه لأى شخص آخر... فقد كانت لديك اختيارات كثيرة لمنعه من ذلك، كان من الممكن أن تصدر له أمراً امبراطورياً بالامتناع عن بناء القصور، كان سينفذه على الفور، كما كان من الممكن بقرار إدارى أن تمنعه من مزاوله المهنة وذلك بفصله من نقابة المهندسين، وكان من الممكن أن تصدر قانوناً بإزالة أى قصر آخر يبنيه سنمار بدعوى المنفعة العامة، كما كان من السهل عليك أن تعينه رئيساً لبعثة هندسية فى القطب الشمالى، أيضاً كان من الممكن أن تعينه وزيراً للأشغال وتحرم عليه طبقاً للقانون العمل فى القطاع الخاص، كان بوسعك أيضاً أن تضعه فى السجن إلى أن يموت بتهمة اختلاس مواد بناء والتلاعب مع المقاولين.. كل هذه

المهندس سنمار

لقى جزاء سنمار، جملة نقولها عن هؤلاء الذين يقومون بأعمال جلية فتكون النتيجة وبالأعلى عليهم، العقاب والأذى أو الموت مثلما حدث فى حالة أخينا سنمار. كان سنمار مهندساً معمارياً عظيماً بل لعله كان سيد البنائين فى عصره بدليل أن الامبراطور كلفه ببناء قصر لا يضارعه قصر آخر فى الامبراطورية. وعند الاحتفال بتسليم القصر استدعاه الامبراطور وألقى به من فوق أسوار القصر العالية فسقط على الأرض ومات.

هنا تنتهى أحداث الحدوتة ولكن العقل الجمعى بحثاً عن منطق معقول أو مبرر لجريمة الامبراطور فسر ما حدث بأنه خشى من أن يبنى المهندس قصراً جميلاً آخر لأى مخلوق، أراد أن ينفرد بدافع من أنانيته بسكنى هذا القصر الجميل الذى لا يضارعه قصر آخر.

الاختيارات كانت متاحة لك وكلها تضمن لك أن تحرم الآخرين من عبقريته في المعمار، فلماذا قتلته.. لماذا قتلت سنمار؟
وهنا حدث أمر غريب، ذلك الامبراطور المتطاوس انهار فجأة باكياً وهو يقول: أرجوك.. أنا أيضاً أتعذب من آلاف السنين بحثاً عن سبب معقول لجريمتي النكراء، إننى لم أقتله فقط، لقد قتلته أثناء الاحتفال بتسليم القصر أمام رجالى وأمام الشعب كله وأمام كاميرات التليفزيون والمراسلين الأجانب والمحليين، أنا الذى يطلب منك الإجابة، كل ما أعرفه أنى أحسست برغبة لا تقاوم فى قتله أمام الناس جميعاً.. ولكن لماذا؟ صدقنى لا أعرف وبما أنك استدعيتنى من مملكة الحواديت القديمة لذلك أرجوك، فسر لى جريمتى.

صدقت الرجل، فقد كان يدلى باعترافه وهو على درجة من التعاسة لا يمكن تصورها، كنت أيضاً على يقين من أنه لم يكن « واعياً » بالأسباب التى دفعته لارتكاب هذه الجريمة إذ لم تكن مدرسة التحليل النفسى قد ظهرت إلى الوجود بعد، لذلك أجبت: أنا بالفعل أدرك السبب الذى دفعك لارتكاب هذه الجريمة، وكان هدفى من التحقيق معك هو الحصول على اعتراف منك، ولكن بما أنك تجهل السبب لذلك سأوضحه لك..

يا سيدى الإمبراطور.. هناك بشر امتلأت نفوسهم بالظلمة والبلادة والعجز عن الإبداع وأنت منهم أو لعلك أنت علم عليهم، العظمة والأفعال العظيمة تشعرهم بالفزع والرعب من أصحابها فيبذلون جهداً كبيراً فى التعتيم عليهم بل والقضاء عليهم بإنكار

ما أنجزوه. جمال القصر وعظمة معماره وهندسته الفائقة جعلتك تشعر بالضآلة، تلك الضآلة المعذبة التى تحول البشر من أمثالك إلى قتله.. لم يكن هدفك هو سنمار وحده، بل أى سنمار آخر موجود أو سيوجد لذلك لم تقتله سراً، بل علناً أمام الجميع، كانت رسالتك لهم واضحة، أنا ضد الإبداع والمبدعين، أكره هؤلاء الذين يتقنون عملهم إلى هذا الحد لأننى عاجز عن الاتقان ولست راغباً فيه، ها أنتم جميعاً ترون بأعينكم مصير كل من يجرؤ على الإبداع، كونوا عجزة، كونوا بلداء، يجب أن تعجبوا بى أنا وحدى، لا يجب أن يظهر فى هذه البلاد شخص جدير بالإعجاب سوى، أنا العامل الأول، والفلاح الأول والمهندس الأول، أنا سيد البنائين.. كل طاقة الإعجاب فى قلوب البشر لابد أن تكون من نصيبى أنا وحدى... أليس هذا هو بالضبط ما فكرت فيه يا سيدى الامبراطور بينما أنت تصدر أوامرك بقتل ذلك العبقرى المسكين؟ ولكن تاريخ الحواديت كان عادلاً عندما ذكر اسمه وتجاهل اسمك.. لا أحد منا يعرف اسمك، نحن نعرف سنمار فقط وسنظل نعرفه للأبد رمزاً للإبداع والإتقان.

قال الامبراطور وهو يرتعش: نعم.. نعم، هذا هو بالضبط ما فكرت فيه وما شعرت به.. هل تسمح لى يا سيدى المحقق بالانصراف والعودة إلى مكانى فى عالم الحواديت القديمة..

وأغلق المحضر وسمحنا له بالانصراف بعد أن وجهنا له الشكر لأنه بفعلة السوداء ساهم فى جعلنا نفهم على نحو أفضل سلوك الطغاة.

سمح لهم فى البداية بالدخول والإقامة والعمل بدون تصريح عمل وبدون إقامة رسمية لأنهم مواطنون عرب جاءوا يقيمون فى ضيافة أمين القومية العربية، ولأن الحدود بين البلاد العربية مصطنعة أقامها الاستعمار ابن الكلب. تلك الحدود التى حاول عدة مرات إزالتها بينه وبين مصر بالبلدوزرات لأنها أصلا لا يجب أن توجد. طبعا المفكر السياسى فى هذه الحالة سيفرق ويتوه وسط تحليلات سياسية لا نهاية لها بحثا عن أسباب معقولة لهذا الإجراء. هل هو يخشى الإرهاب الأصولى لذلك قرر التخلص من هؤلاء العمال؟ هل كفر أمين القومية العربية بالعروبة وقرر أخيرا أن تتحول ليبيا إلى بلد أوروبى؟ هل.. هل.. هل؟

مطلقا، المسألة أبسط من ذلك بكثير، الإجابة هى: عاوز يغليظ القيادة السياسية فى مصر.

لماذا؟

■ لأنه متغاض منها.

- ليه لاسمح الله؟

لأنها فشلت - حتى الآن - فى الضغط على أمريكا وأوروبا لحل مشكلة لوكيربى وفك الحصار عن ليبيا!

الطريف فى الأمر أن عددا كبيرا ومسئولا من البشر يتصورون أن أزمة لوكيربى مشكلة سياسية يمكن حلها بالمباحثات أو بالمناورات أو بالضغط أو بالتفاهم أو بالفكاكة، ويرفضون فكرة أن أتخن تخين فى أمريكا أو أوروبا عاجز عن حلها لأنها تقع خارج نطاق السلطة التنفيذية أصلا، لا مخلوق على وجه الأرض من صلاحياته إغلاق ملف لوكيربى.

حاجة

تغليظ

كنت أظن أن الشعور بالغليظ أو الإغاضة من أهم ملامح الشخصية المصرية، غير أنى قرأت مقالا للأستاذ شربل داغر بجامعة الكويت يؤكد فيه أن الفعل السياسى بهدف الإغاضة هو سمة عربية، وأن غالبية القرارات العربية التى أدت وتؤدى إلى كوارث تمت بدافع من الغليظ والرغبة فى إغاضة الآخرين.

الغليظ هو درجة عالية من الغضب الانفعالى تدفع صاحبها إلى فعل غير مسئول يدفع الناس ثمنه الفادح فى النهاية، خصوصا عندما يكون الغاضب أو المغتاض رئيسا يريد أن يغليظ رئيسا آخر. على ضوء هذه النظرية الجديدة نستطيع أن نعيد النظر فى تاريخنا العربى المعاصر لنخرج بفهم صحيح لما حدث ويحدث لنا وحولنا الآن.

لقد طرد الرئيس القذافى العمال المصريين الذين لا يحملون تصاريح عمل أو الذين لا يقيمون إقامة شرعية فى ليبيا. طبعا هو

أما طرد الفلسطينيين فالهدف الوحيد منه هو إغاضة الرئيس ياسر عرفات!! أطفال ونساء وشباب ورجال وكهول وعجائز، بشر ينتزعون من بيوتهم ويلقى بهم على الحدود. كل جريمتهم أنهم ولدوا عربا فلسطينيين، كم غنينا من أجلهم، كم حاربنا من أجلهم، كم هزمنا من أجلهم، ولكن هل حدث كل ذلك حقا من أجلهم؟!

بشر مستقرون في ضيافة أمين القومية العربية من عشرات الأعوام يلقي بهم وسط الرمال في وحشية لا مثيل لها ولا نسمع كلمة واحدة عنهم من أمين الجامعة العربية، بل إنه ولا كاتب من « المتخصصين » في نصرة الشعب الفلسطيني طالب بقرار حاسم تتخذه الدول العربية لإنقاذ هؤلاء البشر من ذلك المصير التعس. عقد الرئيس عرفات اتفاقية مع الإسرائيليين، لتكن هذه الاتفاقية ما تكون. لتكن جيدة أو رديئة، مخلصه أو خائنة، ناجحة أو فاشلة، ما هي مسئولية البشر العاديين عنها؟ لا شيء. المسألة باختصار أن رئيسا عربيا يريد أن يخرج وأن يغيظ رئيسا عربيا آخر وليذهب البشر إلى الجحيم. يا لها من بطاقة تعارف نقدم بها أنفسنا إلى العالم.

لنعد الآن في الزمن عدة كيلو مترات إلى الوراء. لماذا ذهبت جيوشنا إلى اليمن في بداية الستينات؟ لنصرة الثورة اليمنية. هذه هي الإجابة التاريخية المعتمدة. وهي إجابة غير صحيحة، لقد ذهبنا إلى اليمن بشبابنا وأموالنا وجيوشنا لتضيع على الرمال والجبال لكي نغيظ الأسرة المالكة السعودية لأنها بتغيظنا، وعندما قال جمال عبد الناصر أمام العالم كله من خلال الميكروفونات

والكاميرات «أنا حانتف دقن الملك فيصل» فقد كان يعبر بدقة عن الهدف السياسي للمرحلة كلها، عاوز يغيظ الملك فيصل دون أن ينتبه للحد الفاصل بين العمل السياسي وقلة الحياء وانعدام التهذيب، وبغير أن ينتبه إلى أنه يمثل المثل الأعلى أمام شعبه وأن مجرد نطقه لهذه الجملة سيشق طريقاً جديداً قذراً أمام البشر يسود لأجيال.

وفي خطبة أخرى أراد أن يغيظ الملك حسين فبدلاً من أن يقول «عاهل» الأردن قال «عاهر» الأردن بين هتاف الجماهير وصياحها وتهليلها، لقد تحول رئيس الدولة في لحظة من المثل الأعلى في التهذيب والحكمة إلى ممثل فكاى يطلب الإعجاب من المتفرجين بنكتة رخيصة يجرمها قانون الرقابة على المصنفات الفنية الذي يمنع إهانة رؤساء الدول على المسرح، ولكن الغيظ والرغبة في الإغاضة بالطبع تشلان العقل والتفكير الصحيح.

وصدام حسين غزا إيران لأنه متغاض منهم، وغزا الكويت لأنه متغاض من الكويتية بدليل الوحشية التي عاملهم بها مما لا يتفق وقواعد الضم أو الوحدة أو الاتحاد أو التوحيد أو أى زفت آخر.

وهزيمة ٦٧ أيضاً كانت نتيجة للغيظ، أصدر موشى ديان تصريحاً قال فيه (نحن نحذر الحكومة السورية، إذا لم تمتنع عن إرسال «المخربين» عبر حدودها سنغزو دمشق ونسقط الحكومة) الواقع أن هذا التصريح كان من الممكن أن يمر مرور الكرام ولكنه أضاف جملة يعرف جيداً كم ستغيظ عبد الناصر وهي جملة (لن يمنعنا من ذلك اتفاقية الدفاع المشترك التي عقدها المصريون مع السوريين فهي ليست أكثر من قصاصة ورق)

قصاصة ورق يا أولاد الكلب .. طب هه .. على الفور وبدافع من الغيظ الشديد قرر إغاضة إسرائيل و أمريكا، الدليل على ذلك أن جيوشنا احتشدت هناك بدون خطة معروفة مسبقاً لقادة هذه الجيوش .. باختصار، غاظونا وكان لازم نغيظهم.

فى هذه المنطقة الغنية التعسة لا حقوق للبشر، يشعر الرؤساء بالغيظ من رؤساء آخرين فتيجى على دماغنا ودماغ أبونا واللى خلفونا بعد أن تحولت السياسة إلى عمليات غيظ وإغاضة متبادلة بين الحكومات مستبعدة تماماً البشر من حساباتها.

وفى قضية الحرب والسلام وهى أكثر قضايا المنطقة سماجة وسخافة لا أحد يريد أن يحارب ولا يريد أن يسالم، لأن الحرب قد تجلب لنا الدمار لذلك نكتفى بالمناداة بها ودق طبولها ورسم أجوائها لكى نغيظ أطرافاً أخرى، والسلام أيضاً قد يحرمننا من فرصة أن نغيظ أو نغتاظ، وبين عمليات الغيظ والإغاضة لا أهمية لمصالح البشر.

هناك مصطلح فى العامية المصرية يقول «فلان ده غياظ» أى أن كل الأفعال التى يقوم بها تكون بهدف أن يسبب غيظاً للآخرين، وأنا متأكد أن هذا التعبير لا مثيل له فى اللغات الأخرى، على الأرجح لأنه لا مثيل لنا على وجه الأرض ..

انظر حولك جيداً لا تشغل بالبحث عن أسباب حقيقية خلف أى قرار سياسى أو إدارى أو اقتصادى أو اجتماعى، المسألة بسيطة، حد عاوز يغيظ حد ... بس.

باسم الشعب

قال بطل المسرحية فى أسى وذهول: الحكم الذى صدر بالتفريق بينى وبين زوجتى صدر باسم الشعب، حيث إن الأحكام القضائية فى مصر تصدر باسم الشعب .. والحكم هو عنوان الحقيقة، بل هو الحقيقة ذاتها، وبذلك يكون الشعب المصرى قد انحصرت اهتماماته وتركزت فى حقيقة واحدة هى منعى من معاشرة زوجتى أو الإقامة معها تحت سقف واحد. الشعب المصرى يعاقبنى وزوجتى لأننى قلت إن التصورات السائدة عن الشياطين والملائكة ليست ملزمة للنخبة المفكرة .. فقد يتخيل العالم الملائكة بأجنحة، بينما أتخيلها أنا قادرة على الانتقال من مكان لآخر بغير أجنحة .. قد يتصورون أن الشيطان قادر على التنكر على هيئة قطة أو أرنب، بينما أتخيله أنا قادراً على التنكر فى هيئة موظف عام يأتى من التصرفات بما يدخل البشر دائرة الجحيم ..

هناك من يعتقد أن أمريكا هي الشيطان الأعظم، وكان هناك من يعتقد أن الاتحاد السوفيتي هو الشيطان الأعظم، إلى أن أثبت التاريخ أنه الغلبان الأعظم، لكل عصر شياطينه ورموزه الشيطانية.. ما هو الصعب في فهم أن الشيطان هو الفكرة الشريرة التي تعود بالشر على البشر وتمنع عنهم الخير؟! حسنا سأفترض جدلا أن أفكارى خاطئة.. لماذا يهتم الشعب المصرى بعقابى على فكرة خاطئة لم يترتب عليها المزيد من الديون والمزيد من تلويث مصادر المياه والمزيد من البطالة وانخفاض مستوى المعيشة؟! صدقنى أنا أسألك جادا.. فعلى الأقل أنا أدرك أن المفكر الحقيقى لا يزعم اليقين، لست على يقين من صحة أفكارى، وحتى لو كانت أفكارى يقينية.. فهل فعلت بهم ما فعلته شركات توظيف الأموال..؟ لماذا أعاقب هذا العقاب. الغريب الطريف المذهل المؤلم ولأول مرة فى التاريخ؟

- يا عزيزى، أنت تعاقب لأسباب لا صلة لها بالملائكة أو الشياطين.. أنت تهدد النظام العام بالترويج لحزب جديد خطر للغاية هو «النجبة المفكرة على نحو مختلف عن الجماهير».. أنت تهدد مؤسسات كبرى سياسية واجتماعية وصناعية وتجارية وإعلامية يجمع بينها قاسم مشترك أعظم هو التفكير الجماهيرى، هؤلاء سيحاربون بضراوة كل من يسلب منهم حقهم فى الاستمتاع بالعدوان على الحياة فى كل مجال وكل مهنة.. أنت تطالب الآن بأرستقراطية فكرية تتسم بالشجاعة ولا تستسلم لابتزاز الشارع الديماجوجى.

هل تقصد أنه لا توجد فى مصر نجبة مفكرة؟
- هى موجودة بالقطع، فى كل مجتمع وفى كل لحظة تاريخية على الأرض توجد قوى تقدم وقوى تأخر.. السؤال هو: ما هو المكان المخصص لكل منها؟ الألواج أم الترسو؟ كراسى القيادة أم التشعلق على سلاالم الترام؟ النجبة المفكرة فى مصر موجودة ولكنها حريصة على ألا تعطى عنوانها لأحد.. تفكيرها منحصر فى حماية ذاتها، هم فى حالة دفاع شرعى عن النفس لا يستوجب اللوم، فصيلة صغيرة تبعثر أفرادها أمام عدو قوى قادر متسلح بكل أدوات الدمار السوقية.. قد يستطيع مفكر النجبة أن يحارب قانونا أو وضعا سياسيا خائبا.. بمقدوره أن يبارز مفكرا آخر ويجد كل منهما لذة فكرية فى الصراع مع الآخر، ولكن لا يوجد مفكر على وجه الأرض قادر على التصدى للابتذال والسوقية وذلك بفضل تكنولوجيا الاتصالات فى العصر الحديث.

■ ماذا تقول؟ التكنولوجيا تساعد على الابتذال؟

- نعم.. هى عندنا تفعل ذلك، فى البداية على الأقل، ولكن فى بلاد المنشأ هى تؤكد حرية الإنسان ونبله، هى اختراعات نبيلة صنعها نبلاء من أجل إتاحة الفرصة أمام البشر للمزيد من تحقيق التقدم.. تحدث الكارثة عندما يقفز عليها الغوغاء ويستخدمونها فى إحداث المزيد من التأخر.. هل تعرف الشطار؟
نعم، الشطار جمع شاطر.. والشاطر هو الشخص الكفاء فى عمله..

- غير صحيح، الشاطر هو الحرامى النشال الذى يشطر جيب

الزبون ويخطف محفظته.. الشاطر الآن لا يخطف بطيخة أو محفظة بل يسرق صفحة أو صحيفة، يستولى على كاميرا تليفزيون يصب منها البلاهة على الحياة، يستولى على ميكروفون وجهاز كاسيت يسجل عليه بلاهات مرعبة يصدقها البسطاء، يستولى على جهاز فاكس.. هل كان مخترع الفاكس يتصور للحظة أنه يعطى هدية لا تقدر بمال لعصابات القنلة.

■ بهذا المنهج فى التفكير أنت تحرم أصحاب النشأة المتواضعة - وكلانا منهم - من ارتقاء سلم التحضر والنبل والفروسية.

- لست أنا الذى يحرمهم.. غياب الأرسقراطية المصرية هو الذى يحرمهم.. لابد من مثال نتمنى أن نكونه، لابد من معسكر نبيل نحلم بالانضمام إليه، لابد من وجود أقوياء مقياس قوتهم الوحيد هو العمل على حماية الضعفاء ومن لا ظهر لهم، لابد من حلقات من البشر تتصدى للعمل العام، وتعطى أمثلة للصدق والشجاعة والصراحة والنبل والتهديب.. وأولا الكفاءة.. إذ لا أهمية للإنسان عندما تنعدم كفاءته.

أصارحك بأننى لست مهتما بما تقول بالرغم من أهميته.. أنا مهتم بموضوع الشيطان..

- حسنا.. لنختلف على الهيئة التى يظهر بها.. المهم هو أن نعرف ماذا يعمل الآن؟ وماذا سيفعل؟.. ما رأيك فى ذبح الناس فى المعبد الفرعونى؟.. من تعتقد فى تصورك أنه قادر على التفكير والإيحاء والتنفيذ ثم الافتخار بها فى بيان؟.. من غير الشيطان قادر على فعل ذلك؟.. وإذا كنا نصف بعض الأفعال بأنها شيطانية

بمعنى أنها من وحى الشيطان، أو من صنعه، فهل تتصور أن ما حدث فى الأقصر من صنع مخلوق آخر؟
■ من الواضح أنك مكتئب..

- احتمال.. قد يكون ذلك راجعا لمعرفةى بأن أخطر شىء فى الوجود هو أن يتنكر أعوان الشيطان فى ثياب جند الله.

إلى بيته، وفوجيء بشخص حسن الهندام يقدم له نفسه: اسمح لي أن أعرفك بنفسى يا سيدى.. أنا الشيطان. تجمدت الدماء فى عروق القسيس من الرعب ولكنه تمالك نفسه وصرخ فيه: إبعد عنى يا ملعون.

فقال الشيطان فى رقة: هل تعتقد أننى قادر على إغوائك يا سيدى.. أنا أعرف مدى صلابتك ومدى كراهيتك لى.. صدقنى أنا أشعر بالوحشة من السير بمفردى فى هذه الغابة.. أرجوك اسمح لى بالسير معك.

وافق القسيس على طلب الشيطان، على الأرجح خوفاً من قدراته الشيطانية ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يستعين منه بالله فى سره. وسارا معاً، وفجأة سقط الشيطان فى حفرة وعجز عن الخروج منها فقد كانت جدرانها ملساء عجز عن أن ينشب مخالبه فيها فقال للقسيس متوسلاً: ساعدنى يا سيدى.. مدلى يدك.. انقذنى. فضحك القسيس منه فى سخرية وقال له: أنا أساعدك؟! أساعد الشيطان؟! هذه فرصة لا تعوض لتخليص البشر منك ومن شرورك.. سأتركك تموت وتتعفن فى هذه الحفرة.

فقال له الشيطان فى لهجة جادة: وعندما أموت أنا.. ماذا ستفعل أنت؟ ماذا ستكون وظيفتك؟ بماذا ستعظ الناس؟ بعد أن أموت أنا، كيف ستكسب عيشك؟ ماذا سيحدث عندما يعرف أهل القرية أن الشيطان المكلف بإفسادهم قد مات؟ هل سيترددون على كنيسةك لسماع مواعظك؟ .. انقذنى يا سيدى إذا أردت أن تحافظ على أكل عيشك.

مصاحبة

مشرقة

حدوتة قديمة من الأدب الشعبى الروسى عن قسيس متشدد فى قرية فى أصقاع سيبيريا، كان يشعر جمهور كنيسة كل يوم أحد بالرعب فقد كان محور موعظته الأساسى هو التحذير من الشيطان والأعبيه وخبائثه، الموسيقى من صنع الشيطان فلا تسمعوها، الأطعمة اللذيذة أيضاً يسكنها الشيطان، الاعتداد بالنفس من صنع الشيطان والبهجة أيضاً من صنعه، كونوا حزانى، كونوا تعساء لتتقوا شره، كل أنواع الفنون الجميلة هى من حيله ليصرف بها أنظار الناس عن العبادة، ابتعدوا عنها..

لسنوات طويلة كان أهل القرية يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد ليشعروا بالفزع والرعب من ذلك الشيطان القادر على التسلل إلى كل زاوية من زوايا حياتهم.

وذات يوم كان القسيس يخترق الغابة مشياً على الأقدام ذاهباً

حجة الشيطان كانت قوية ولكن القسيس قاوم كلماته المعسولة وقال: سأحدثهم في موضوعات أخرى.

تساءل الشيطان في هدوء: ما هي يا سيدى؟ .. هل ستحدثهم عن أهمية الزراعة والتعليم والبحث العلمى، هل ستحدثهم عن حقوق الإنسان، هل ستكلمهم عن أهمية الديمقراطية، أنت متخصص فقط فى ابتزاز الناس وتذكيرهم بى ليل نهار.. أنت عاجز عن دفعهم إلى حب الحياة لأنك فى أعماق أعماقك لا تحبها وترى أنها إثم كبير.. أريدك أيضاً أن تلاحظ أنك لا تجيد أى حرفة أخرى تجلب لك حداً أدنى من احترام أهل القرية.. هل تستطيع العمل خطاباً أو فراناً أو مزارعاً أو حتى حوذاً؟ من فضلك فكر جيداً.. لا حياة لك بدونى.. ساعدنى.. أخرجنى من هذه الحفرة.. انقذنى.

بالرغم من كراهية القسيس الفظيعة للشيطان غير أنه كان ذكياً وواقعياً، لذلك مد له يده وأخرجه من الحفرة، وسارا معاً فى الغابة يدردشان فى ود.

كفاية

كده

أنا واحد من سكان المنطقة تصادف أن كان مصرىيا وكم أعتز بهذه الصدفة، وإذا كان من المحتمل الشك فى كل الحقائق، غير أنه من المؤكد أننا نعترف بأمر واحد هو أننا جميعاً نولد فى أماكن اختارها لنا آباؤنا.

وحقيقة أخرى لا سبيل إلى الشك فيها هي أن هؤلاء الذين يعيشون على هذا الكوكب ولدوا عليه، وأنهم يكونون نوعاً يري نفسه ممتازاً، اصطلاح على تسميته بالجنس البشرى أو الإنسان تفرقة له عن أقاربه البعيدين الذين ولدوا معه على نفس الكوكب، والذين أسماهم الحيوانات ومفردها حيوان. لدى ما يدعونى للاعتقاد بأن الإنسان راقب باهتمام سلوك أقاربه من الحيوانات فاكتشف أنهم يأكلون بعضهم البعض عندما يجوعون أو عندما يشعرون بالفزع أو بدافع من الرغبة فى التسلية وما تنتجه من

لذة. وذات لحظة، ولسبب لم نتعرف على مصدره حتى الآن بدقة، قرر ألا يجوع وألا يشعر بالفزع وأن يمتنع عن التسلية بقتل الآخرين وأن يمنع الآخرين من التسلية بقتله، وهنا بدأت رحلة الإنسان الطويلة في البحث عن مصادر للثروة غير ملطخة بالدماء. الزراعة أبعدت عنه الجوع، أما الفزع فيبدو أنه اتفق مع بقية أبناء نوعه على الاكتفاء بالفزع الناتج عن الكوارث الطبيعية والحيوانات المتوحشة والزواحف السامة والحشرات القاتلة. سجلات التاريخ لم تذكر لنا بالضبط في أى غابة أو أمام أى كهف قال الإنسان الأول لزميله: يا إنسان.

بالتأكيد لم تكن كلمة السيد أو الأستاذ أو يا حضرة أو زميلي أو يا رفيق قد اخترعت بعد.

قال له: يا إنسان.. أنا أشعر بالخوف منك.

فرد عليه: وأنا أيضاً أشعر بالخوف منك.

فرد عليه: أنا أكرهك بشدة.

فرد عليه: وأنا أيضاً أكرهك بشدة.

فرد عليه: أنا أشك في نواياك.

فرد عليه: وأنا أيضاً أشك في نواياك.

فرد عليه: أنا أفكر في الاستيلاء على حقلك وزوجاتك وطيورك الداجنة وحيواناتك الأليفة واستعباد أطفالك وقتلك..

فرد عليه: يالها من صدفة سعيدة وتوارد خواطر جميل.. تصور أنني أيضاً أفكر في نفس الشيء!

في ذلك اللقاء شعرا بقدر من الفرحه بعد أن اكتشفا صفة

مشتركة تجمع بينهما، كل منهما يفكر في القضاء على الآخر. جلسا معا أمام الكهف يتسامران، أخذ كل منهما يشرح للآخر في نشوة تفاصيل الطريقة التي ينوى تمزيقه بها. لم ينجح أحدهما في القضاء على الآخر فقد كانا حذرين للغاية، وربما اكتشفا سخافة ما يفكران فيه.

وفى اللقاء الثانى بعد عدة أيام أو بعد آلاف من السنين لم يناده: يا إنسان.. فقد كان يعرفه، لذلك ناداه: يا هذا الذى أعرفه.

أعرف أن القصة لم تحدث بهذه البساطة وهذا الوضوح إذ لم تكن اللغة قد اخترعت بعد، وإذا كان لدينا تسجيل واضح لما دار فى جلسة لقائهما الأول لاكتشفنا أصواتا فقط، أصواتا مفزوعة مبهمه غامضة وحشية. قال الأول: عا... عوووا

فرد عليها الثانى: عا عى... عوووا

وفشل اللقاء، كان لابد من أن يفشل اللقاء بينهما لأن اللغة لم تكن قد اخترعت بعد.. فى غياب اللغة لابد أن يفشل أى لقاء، ثم اخترع الإنسان اللغة، ولكنه لسبب غامض لم يصدرها للمنطقة العربية، اكتفى بتصدير المخترعات الحديثة ولكنه لم يصدر لنا اللغة لسبب بسيط، أن اللغة لابد أن تكون اختراعا محليا من اختراعنا نحن.

اسمحوا لى أن أعلن بكل تهور: نحن لم نعرف اللغة بعد، نحن مازلنا فى مرحلة العوووا ... عاووووى... ترالم... ترلعلع... تتكمعو ... فس... عا.

وماذا عن اللغة العربية، أليست لغة مثل الإنجليزية والفرنسية؟ نعم، توجد لغة عربية ولكن لا يوجد من يتكلمها، نحن لا نتكلمها، نحن نستخدمها فقط.. كما يستخدم الناس الجوارى والعبيد، وكما يستخدم النشالون المطاوى وكما يستخدم الإرهابيون الديناميت، أو نلعب بها كما يلعب أطفال الحوارى بالوحل.

نحن نعامل اللغة باحتقار وقلة حياء وعدمية، نستخدمها فقط فى التنفيس عن عدواننا فى إطار من الإبهام والمراوغة فتكون النتيجة أن كل ما نقوله يتسم بالبلاهة والشر، ولا ينتج عنه على الصعيد العملى إلا كل ما هو شرير ومدمر.

وفى الوقت الذى تستخدم فيه شعوب الأرض لغاتها للإحاطة بالحقيقة وإعلانها واكتشاف المجهول والعظيم والجميل فى هذا العالم بشجاعة، نستخدمها نحن كسياج نحمى به أنفسنا من الواقع والحقيقة ونحفر بها نفقا تحت الأرض يوصلنا إلى أكثر أماكن العالم إظلاما.

انظر حولك، اقرأ لمن حولك، كم عدد الكُتاب الذين يطلبون منك كراهية الآخر؟ كم عدد الكُتاب الذين يملأونك غصبا بالشر والغباء وكأنهم محطات تموين إجبارية على طريق الحياة؟

شهادة للتاريخ

هذه شهادتى عن المظاهرة، التى حدثت على مقهى «ريش» بشارع طلعت حرب، يوم أن ذهب الرئيس «السادات» إلى القدس عام ١٩٧٧. كان رأى المعلن فى ذلك اليوم، وما يزال هو أن هذه المبادرة، تعد من أكثر الأفعال السياسية إبداعاً، وواقعية وشجاعة. بعض زملائى وافقونى على رأى سراً، والبعض الآخر لم يتحملوا الصدمة.. من بين الذين أصابتهم المبادرة بصدمة مروعة، كان الزميل «إبراهيم. م» وهو ناقد ومترجم، استولت عليه حالة عصبية مخيفة، تصورت معها أنه على وشك أن يموت.. صاح فى رواد المقهى: «بكرة اليهود ييجوا يقعدوا معاكم على القهوة دى.. ويخلصوا عليكم».

ثم صاح موجهاً حديثه للمارة فى شارع طلعت حرب: «أنور السادات ذهب إلى القدس بمفرده، هو لا يمثل إلا نفسه، الشعب

المصري ليس معه.. أنا لست معه» .

ثم قرر أن يقوم بمظاهرة، المظاهرة في حاجة إلى لافتة واحدة على الأقل، خصوصاً عندما يقوم بها شخص واحد. واللافتة في حاجة إلى متر دمور أو بفتة، أو مترين، وبعد فاصل من السياب الموجه لشخصي، قال لي بعصبية: هات ريال.

- إهدأ يا إبراهيم.

- هات ريال عشان اشترى متر دمور.

- حاضر.. بس اهدأ.. سأعطيك جنيهاً وليس ريالاً، بشرط أن تشرب به مشروبات.. لأنني لو أعطيتك ثمن قماش اللافتة، فمن المحتمل أن توجه لي تهمة «تمويل» مظاهرة ضد النظام.. إهدأ يا عزيزي..

فأكمل شتائميه (فيما بعد وفي يومياته في جريدة العربي الناصري كتب الزميل القصاص «محمد البساطي» واصفاً ذلك اليوم، ثم دخل علينا «على سالم» ومعه علبة سجائر أجنبية وولاعة وتلوح على وجهه علامات الغذاء الجيد، وأنا أعترف بالتهمة الثلاث بالرغم من شناعتها). الغريب أنه ولا واحد من مثقفي «ريش» أخرج الريال المطلوب. واختفى «إبراهيم»، في الغالب عاد إلى مقهى «زهرة البستان» ثم ظهر بعد حوالي نصف ساعة ومعه فوطة صفراء، من النوع الذي يستخدم في تنظيف السيارات، من الواضح أن الحركة الثقافية المعارضة لمبادرة «السادات»، قررت ألا تدفع الريال المطلوب. كان «إبراهيم» أكثر هدوءاً وتماسكاً بل وأقرب للمرح، جلس وبعض الزملاء إلى مائدة مجاورة، وفرد

الفوطة استعداداً للكتابة عليها، وأمسك بالقلم «الفلوماستر» وأخذ يفكر بصوت مسموع في الشعار المطلوب: «نحن المصريين نعلن...».

ثم توقف وقال ضاحكاً: من أنا حتى أتكلم باسم الشعب المصري؟ الشعب المصري لم يفوضني.. لابد من البحث عن شعار آخر. استعرض عدداً من الشعارات ثم استبعادها جميعاً، لعدم ملائمتها للغرض، كانت الجلسة يخيم عليها جو من المرح والعبثية. كانت الساعة الخامسة - تقريباً - بعد الظهر، عندما انصرفت من المقهى أنا والروائي «خيري شلبي»، عندما عدت في المساء، أكمل لي «أحمد» السفرجي ما حدث.

بعض الشبان من خارج مجتمع «ريش» جاءوا وجلسوا مع «إبراهيم»، كان معه الناقد «إبراهيم. ف». الشبان الأغراب كانوا من رجال المباحث، أثناء الحوار الدائر بينهم دخل المرحوم «سيد موسى»، وهو كاتب درامي وسيناريست وإنسان ظريف، همس «أحمد» السفرجي في أذنه: زوج أنت دلوقت يا أستاذ «سيد».. القهوة «متلبشة» مباحث.. أهم قاعدين مع «إبراهيم. م»، و«إبراهيم. ف».

- فرد عليه سيد: أزوغ؟.. ده أنا أحب الحاجات دي قوى.. عاوز أتفرج.

جلس معهم وطلب مشروباً، واحد من الشبان الأغراب، قال له: خلص مشروبك وحاسب دلوقت يا أستاذ «سيد».

- لا.. أصل أنا قاعد.. لسه حاطب طلبات ثانية.

- لا.. حضرتك مش حاتطلب حاجة.. لأنك حاتقوم معانا.

وتم القبض على المجموعة ونقلت فى سيارة كانت جاهزة فى مكان قريب. أكمل لى المرحوم «سيد موسى» القصة فيما بعد: لما وصلنا الداخلية فوجئت بالإبراهيمين يتبادلان سلامات وتحيات حارة، مع رجال أمن الدولة.. اتضح أنها عشرة قديمة، واحد من كبار الضباط، قال لإبراهيم صاحب مشروع المظاهرة: أنا قاعد أتابعك من الصبح، وأنت بتتحرك من قهوة لقهوة طول النهار، وأقول: حايته.. مابتتهدش، وأخيراً اضطريت أجيبك.. أما أنا (الكلام للمرحوم سيد)، فقد قلت لهم: اسمعوا يا حضرات، والله بودى أن أقضى معكم أى وقت، ولكن لدى الليلة موعداً مع منتج فى كافتريا «الكورسال» فى الحادية عشرة مساءً، وسأقبض منه عربوناً.. لست مهتماً بأى شىء فى الدنيا سوى هذا العربون.

فردوا على: اطمئن سنتركك قبل الموعد.

وبالفعل أوصلونى قبل الموعد بسيارة من عندهم.

ما حدث بعد ذلك لم أكن شاهد عيان له، والمصدر الوحيد لمعرفته، هو الإبراهيمان، وملفات أمن الدولة بالطبع، أما إغلاق مقهى ريش (من أجل التحسينات) فقد حدث فى الثمانينات وليس يوم المبادرة، كما ذكر فى بعض الصحف. هذه هى قصة المظاهرة الوحيدة، التى قام بها المثقفون، احتجاجاً على مبادرة «السادات»، هذه هى شهادتى للتاريخ.

الـون

المفقود أبداً

واحد من خلق الله ربما كان مثقفاً ثورياً، دوخ أهله عند الأطباء ومراكز الأشعة ومعامل التحليل، كان يشعر بالآلام شديدة فى بطنه شُخصت على أنها برد فى المعدة أو عسر هضم أو... أو... غير أنه كان مصرّاً على قول غريب: توجد قطة فى بطنه.

ليس مهماً الإجابة المنطقية عن السؤال كيف وصلت هذه القطة إلى جوفه؟ المهم أنه كان يعانى من ذلك. إلى أن وصل أهله به إلى طبيب حاذق حاد الذكاء، تحسس بطنه بأصابعه فى مهارة ثم قال: يؤسفنى أن تشخيصه صحيح، توجد قطة بالفعل فى بطنه ولا بد من إخراجها بعملية جراحية فوراً.

سأله أحد المرافقين من أسرة المريض: ولكن كيف وصلت هذه القطة إلى بطنه؟

أجاب الطبيب الذى يبدو أنه كان خبيراً فى الطب السياسى: للأجهزة العالمية ألعيب مروعة، ولديهم من العلم ما يمكنهم من

وكرابيج وأسلاك شائكة وتماسيح وكلاب مسعورة وذئاب
وثعالب، عندما ينظر خارج جلده ولا يجد نظيراً لما بداخله يصرخ:
نعم.. لقد استرد السادات سيئاء ولكن ناقصة السيادة.

السيادة هي المدرعات، لا داعى للمزارع والحقول والمدن
السياحية وكل مشاريع الري وزراعة الصحراء ومحطات تحلية
المياه فهذه كلها علامات على نقص السيادة، المدرعات فقط هي
العلامة الأكيدة على السيادة، لا بد من دبابة ذات مدفع طويل ولا بد
من زعيم يطل من برجها ويخطب ببلاغة موسولينية بينما هو
يضع يده على ماسورة المدفع، عندها فقط نشعر بأننا أسياد على
سيناء. ولو أن اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية كانت تسمح
بألف مدرعة ومليون جندي فى سيناء، كانوا أيضاً سيصرخون:
هل هذه الأعداد كافية لحماية سيناء؟ إن تحديد العدد فى حد ذاته
دليل على نقص السيادة...

قبل ١٩٦٧ لم يكن من حق أى مصرى أن يزور سيناء إلا بعد
الحصول على تصريح من المخابرات العسكرية، من تعرف هناك؟
.. من ستقابل؟

وتكون الاجابة دائماً هي: أنا ذاهب إلى غزة، لشراء بعض
السلع.

كانت غزة فى هذه الفترة مصدراً لكل أنواع السلع المهربة..
مهربة من أين؟ لا أحد من المثقفين الماويين لديه الشجاعة ليعترف
بمصدر هذه السلع. نحن الآن نستطيع الذهاب إلى سيناء بغير
تصاريح من أى نوع تماماً كما نذهب إلى طنطا والمنصورة، إن
أكبر قدر من فساد الضمير والعماء المتعمد لا يحجبان حقيقة

فعل أى شئ فى البشر، من الواضح أن أخينا معاد للإمبريالية
والاستعمار بل على الأرجح هو من مشجعى الثورة الثقافية
الماوية.. ربما أرادوا أن يعاقبوه على ذلك فوضعوا تلك القطعة فى
بطنه بطريقة لم نكتشفها بعد.

شعر أخونا المريض المثقف الثورى بالراحة، فعلى الأقل ها هو
يجد من يصدقه. على الفور تم إعداد غرفة العمليات ثم تم
تخديره وقطع الطبيب فى جلد البطن قطعاً كبيراً سطحياً ثم
أخاطه. وعندما أفاق صاحبنا من البنج وجد أفراد أسرته واقفين
حول سريره يبتسمون فى سعادة، كان الطبيب يقف بينهم وهو لا
يقول عنهم سعادة.

سألهم صاحبنا بصوت واهن: هل أخرجتم القطعة؟
رد الطبيب: طبعاً.. ها هي.

ومدله يده بقطعة بيضاء صغيرة لطيفة، وهنا نظر صاحبنا
بتعاسة إلى القطعة وانهار باكياً وهو يقول: لا.. ليست هذه.. الثانية
لونها بنى.

● ● ●

من المستحيل الوصول إلى نتائج منطقية عقلية طبيعية مع
هؤلاء الذين يشكون من وجود القحط فى جوفهم. حتى لو
أخرجت لهم قطعاً من كل الألوان سيظل هناك لون يتبحون بأنه
ناقص، تماماً مثل سيناء التى حصلنا عليها ناقصة السيادة.

أى شخص عادى توجد بداخله حقول وحدائق وبحيرات
ونجوم وشموس وأقمار، أما المثقف الثورى الماوى فتوجد بداخله
وفى ثنايا عقله رشاشات ومدافع ميدان ومدرعات ومعتقلات

واضحة هي أنه لم يحدث أن مارس المصريون سيادتهم على سيناء إلا بعد تحريرها بالحرب والسلام. إننى أتحدى أى مثقف ثورى أن يقول إنه كان يعرف مكاناً يسمى شرم الشيخ ودهب ونويبع وطابا على أرض مصر، هذه أسماء لأماكن ساحرة على أرض مصر لم تكن ندرى عن وجودها شيئاً. الآن فقط نحن أسياد فى وعلى سيناء، نزرعها، نقيم فيها المشاريع والمدن السياحية ومع ذلك تظل سيناء ناقصة السيادة بسبب بسيط أن القطة المطلوب إخراجها من بطونهم لونها بنى.

ومن غرائب الأمور أنه بعد تحرير سيناء كانت مقولتهم الشائعة هي لا يجب إعمار سيناء لأنها من الناحية الاستراتيجية (كذا) لا يمكن الدفاع عنها، لا داعى لإنفاق المليارات لتعميرها ثم يأتى الاسرائيليون بعد ذلك ليحتلوها فى حرب قادمة. وبالرغم من أن هذا المنطق لا يستحق مجرد التوقف عنده للحظة واحدة إلا أنه كان سائداً فى أوساط المثقفين الثوريين كأحد الأدلة على ذكائهم الحاد أو حبههم العظيم للخراب.

أما حكاية أن اسرائيل عرضت على جمال عبد الناصر أن ترد له سيناء عام ١٩٦٨ فرفض، فهي الأخرى حكاية سيئة التأليف الهدف منها هو (ما هي هذه السيناء التى تفخرون بأنكم حصلت عليها، لقد عرضت علينا قبلكم بعشرة أعوام ورفضنا) والرد الوحيد على هذه الحكاية هو: قد نصدق إن الحداة تلقى كتاكيت، وبالتالي نصدق أن اسرائيل عرضت سيناء عليكم عام ٦٨ فلماذا رفضتم؟ ألا أنكم لستم فى حاجة إليها، ولماذا لم تسألوا الشعب المصرى أيامها؟ إذا كنتم أنتم لا تريدون سيناء إلا أن الشعب المصرى بالقطع يريدونها.

محاولة

لفهم

كثر الحديث هذه الأيام عن «الشارع العربى» و«الجماهير» و«الرأى العام» يلقى بها الكتاب فى ثقة فى وجوه القراء وكأنها معالم شهيرة على وجه الأرض نعرف جميعاً مادتها الخام ومواقعها وأبعادها وطولها وعرضها وكيفية الوصول إليها. قد تكون كذلك ولكن ليس بالنسبة لى، فحتى الآن أنا عاجز عن الإلمام بتلك المقولات فضلاً عن الإمساك بها.

قد يتطرق إلى ذهنك أننى أعيش فى برج بعيداً عن الشارع، الواقع أننى عشت حياتى لا أترك «الشارع» إلا فى ساعات النوم فقط لأسباب خارجة عن إرادتى أى أن لحظات اليقظة عندى تعنى ببساطة «الشارع» ومع ذلك فأنا عاجز عن فهم ماذا يقصدون بالشارع العربى؟! ولماذا لا نقرأ لكتاب يتكلمون عن الشارع الإنجليزى أو الشارع الهولندى أو الشارع الدانمركى هل تخلو

هذه المدن من الشوارع؟

ومن نقصد بال جماهير؟ سكان المدن؟ سكان القرى؟ سكان الصحف؟ سكان الأحزاب؟ قاطنى النقابات والجمعيات الأدبية الثورية؟ وماذا تريد هذه الجماهير؟ وما الذى تتوق إليه؟ هل تريد الحرية؟ الاستبداد؟ الطعام؟ العمل؟ النظام؟ الفوضى؟

وهل لحركة الجماهير مواسم معينة مثل الفيضان وهجرة الطيور مثلاً؟ وهل تتحرك بدافع من النشوة أم من فرط الألم، هل هى تتحرك بدافع ذاتى داخلى أم بدافع خارجى؟ ولماذا تتحرك هذه الجماهير أماً من أجل الأطفال الجائعين فى بلد عربى وتسكن حركتها فى حال ذبح الأطفال فى بلد عربى آخر؟! وهل هذه الجماهير هى نفسها الغوغاء التى طالما ذكرت فى الأدبيات القديمة، أم أنها مختلفة عنها وماوجه التشابه بينها وما أوجه الاختلاف؟

وما هو بالضبط هذا «الرأى العام» هل يمكن للرأى أن يكون عاماً؟ هل هو رأى يستند إلى المعلومات والإحصاءات، أم يستند إلى الحدس الجمعى أم يصدر عن الانفعالات من يأس وألم وغضب؟!

وما هو دور الرأى الخاص فى تشكيل الرأى العام، هل هناك احتمال أن الرأى العام ليس إلا رأياً خاصاً تم رشه فى ذكاء وخبث على عقول البشر فتخمر وأصبح عاماً وضاعطاً ومؤثراً حتى على الرأى الخاص الذى كانه. أذكر فى أيام الاحتلال الإنجليزى لمصر وفى أيام «احتلالات» أخرى، كان يوجد فى وزارة الداخلية قسمان متجاوران، الأول «لتوجيه» الرأى العام

والثانى «لقياس» هذا الرأى العام. الأول يرسل برجاله إلى المقاهى وأماكن التجمعات البشرية ينشرون الآراء التى تريد الحكومة جعلها عامة وبعد ذلك يبدأ القسم الثانى فى قياس هذه الآراء بعد أن أصبحت عامة ثم يرفع تقاريره إلى الحكومة ليكون ركييزة لها وسنداً فى صنع القرار السياسى، وعندما تقرأ الحكومة هذه التقارير وهى سرية بطبيعتها تشعر بالارتياح والغبطة بعد أن تكتشف أن رأياها متطابق تماماً مع الرأى العام فى الشارع.

أخشى أن تفهم من كلامى أن الرأى العام فى بلادنا ليس أكثر من إدارة حكومية هائلة الحجم يعمل فيها آلاف الأقلام والميكروفونات والكاميرات، وحش هائل الحجم يتغذى يومياً بعدة مئات الأطنان من الورق والأخبار ويتنفس موجات وهواء الأثير، ماكينة ضخمة تعمل ليل نهار على بث رأى الحكومة لتحويله إلى رأى عام، قد تستند فى فهمك هذا إلى أننا مولعون بكل ما هو عام وعامة وعموم. الهيئة العامة لكذا، الإدارة العامة، المؤسسة العامة، الشئون العامة، المشرف العام، المفتش العام، المدير العام، كل ما هو "عام" هو ملك للحكومة، فكيف يستثنى الرأى العام من ذلك؟ هذه مسألة غريزية بحتة لا صلة لها بالسياسة ونظم الحكم. قد يكون فهمك خاطئاً وقد يكون صحيحاً، ومع ذلك، صدقنى ليس لدى قول فصل فى هذه الأمور، أنا مجرد كاتب ينقصه اليقين وبى رغبة أكيدة فى البحث عما تعنيه هذه المصطلحات. ولكى لانزعج رجال السياسة الذين يغضبهم أن يتحدث أولاد الشوارع عما يحدث فى الشارع، فإننا لن نتحرك على أرضهم بل سنحصر

بحثنا في ذلك المثلث الضيق المحصور بين عالمهم السخيف وعالم الفن الممتع وعلم النفس الجمعي المدهش.

أزعم أن أقدم وثيقة في التاريخ تشير إلى « قياس الرأي العام » كانت تلك البردية الشهيرة التي اصطلح على تسميتها بـ « شكاوى الفلاح الفصيح » وإن كنت أفضل كلمة « عرضحالات » (٢٥٠٠ ق.م.) السير والاس بادج، "Egyptian Tales and Romances"

تقول البردية « حدث أن أحد الفلاحين من وادى النطرون حمل ستة حمير بكل مالذ وطاب من ثمار ومنتوجات الواحة التي يسكنها وقادها إلى « منف » لبيع فيها بضاعته، ولكن واحداً من المسئولين عن مزارع حاكم الإقليم طمع في بضاعة الرجل فاستولى عليها بما فيها الحمير وحجته في ذلك أن حماراً قليل الحياء عديم الانضباط قضم عدة أوراق خضراء من حقله وعقاباً له بوصفه مسؤولاً عن سلوك حماره كان لابد من مصادرة كل أملاكه. وقف الفلاح أمام المسئول اللص بثبات محتجاً ومطالباً بحقه، ثم تعالت صيحاته ففقد المسئول اللص أعصابه فضربه وهو يصيح فيه مستنكراً: إخرس .. ألا تعلم إنك هنا في وادى السكوت المقدس؟! »

وهنا يرد عليه الفلاح المسروق في سخرية: " حسناً ياسيدي، اعطني حميرى وخذ سكوتك .. هل تسرق منى حميرى وبضاعتي وتريد أن تسرق منى صوتى أيضاً "

لا فائدة، الرجل مصمم على سرقة، وهنا يقوله له الفلاح بثقة

وهذوء: " حسناً، أنا أعرف صاحب هذه المزارع، إنه حاكم الإقليم، أعرف أنه عادل وعظيم، لقد طهر هذه الناحية من اللصوص وقطاع الطرق.. وأنا واثق أنه لن يرضى بأن أسرق في زمامه " .

(فيما بعد، ولآلاف السنين سيتخذ المسرح المصري نفس المسار، الحاكم عادل ولكن حوله مجموعة من اللصوص غلاظ القلوب، وهوبالتأكيد يجهل أنهم كذلك) ويذهب الفلاح لحاكم الإقليم ويبدأ في « عرضحاله » الأول، بدأ في عرض قضيته في بلاغة وجمال وحرارة وأيضاً في إطار قوى من النفاق «أنت بين الأغنياء أغناهم، وأنت الزوج لكل أرملة والأب لكل يتيم، أيها المدوح من كل هؤلاء الذين يمدحهم المادحون»

بعد أن انتهى من عرضحاله الأول ذهب الحاكم من فوره إلى الملك : مولاي.. واحد من المسئولين عندي سرق فلاحاً (كذا....) ولكنه فلاح فصيح ومثقف لدرجة تدعو للإعجاب.

فيرد عليه الملك : «إذا كنت تريد إرضائي، لاتقم بحل مشكلته.. دعه يتكلم، دعه يفصح عما في نفسه وكلف شخصاً بكتابة كل حرف يقوله وارفعه لى يومية، وارسل له بطعامه يومياً مع واحد من أصدقائه المقربين».

بعد ذلك أرسل الملك بخطاب سرى (هذا ماتقوله البردية) إلى حاكم وادى النطرون يطلب منه إمداد أسرة الرجل بما تحتاجه من طعام بغير أن تعرف مصدره . لاشك أن الملك بخبرته الطويلة عانى من غموض تقارير معاونيه وأجهزته وتضاربها، ولاشك أنه رأى في حكاية هذا الفلاح فرصة غاية الأهمية للتعرف على

ما يحدث في بلده، لا أحد بارعا في الإفصاح عن الألم العام سوى المبدع ذي الألم الخاص. هو لا يريد الاستمتاع بفصاحة وبلاغة الفلاح وإلا لكان أعطاه منحة تفرغ يكتب فيها رواية مليئة بالحكم والعبر. ولكنه يريد أن يتعرف على آلامه التي هي بالتأكيد آلام شعبه، فحالته ليست شاذة أو استثنائية بالتأكيد، ليست حميره وحدها التي يسرقها المسئولون، هناك مليون فلاح يسرق كل يوم، السؤال هو: هل يصلح أى منهم مصدراً للتعرف على رأى العام؟ لنقترب أكثر من ذلك الفلاح لننتعرف على ملامحه، هو فلاح، وضحية، ومتألم، ولكن أهم ما يميزه هو أنه مبدع، لديه القدرة على التعبير عن ذلك كله بوضوح، وقادر أيضاً على تجاوز آلامه الخاصة والانشغال بالهموم العامة وبالفعل ستجده في عرضحالاته التالية يتكلم عن موازين العدل في المجتمع نفسه ولا يركز كثيراً على مشكلته إلا بالقدر الذى يتيح له النفاذ منها إلى مشاكل المجتمع الزراعى ودور البيروقراطية فى تفاقمها، أتصور أن الملك كان على وعى بأن الحقيقة تولد عند الفرد وتموت تحت أقدام الجماهير، وأنه عندما تندفع «الجماهير» إلى الشارع فى حالة قصوى من التعاسة أو الغضب أو الألم فلا بد أن يسقط بعض القتلى تحت الأقدام وبينهم ستعثر على جثة الحقيقة. كان الملك مهتماً أيضاً بأن يعرف وهذا أمر جميل، الرغبة فى المعرفة هى أهم ما يميز رجل الدولة، ومشكلة رجال الدولة فى الديكتاتوريات أنهم ليسوا فى حاجة للمعرفة بعد أن استعاضوا عنها بالرسالة المقدسة، لذلك يفاجأون بحسابات الواقع ودروعه

وعواصفه وثوراته.

قد نتساءل: لماذا لا يصدر الملك قراراً بتعيين ذلك الفلاح الفصيح مستشاراً لديه؟ ألا يضمن بذلك أن يزوده بتقارير حقيقية موضوعية عما يحدث فى الشارع؟

الواقع أن الملك أحكم من أن يقع فى هذا الخطأ، ففى دائرة الحكم الباردة الشرسة وحولك عشرات الأفراد الأقوياء من أصحاب الآراء والأفكار التى تستند إلى النفاق والتذاكي، حتما ستفقد حريتك فى التعبير عما تراه صحيحاً وستحاول دائماً أن تتفادى ذكر الحقيقة كاملة مكتفياً بذكر شريحة منها لا يختلف عليها أحد لكى لا تغضب عشاق الباطل فى دائرة الحكم فتخسر السلطة والنفوذ والفلوس وتتحول إلى أقل من لا شىء، لنفرض أنك شخصياً كنت عنتره بن شداد أو شخصاً آخر يفوقه قوة وشجاعة، هل كان من الممكن أن تصارح قيادتك السياسية فى الثلث الأخير من شهر مايو ١٩٦٧ بأنها ترتكب خطأ مروعاً بحشد قواتها المسلحة فى صحراء سيناء بلا خطة أو هدف واضح، وأن فارق التكنولوجيا بينها وبين قوات العدو ستكون كفيلة بتدميرها فى ساعات عدة؟ من المستحيل أن تفعل ذلك بعد أن تحرك الشارع واستولت عليه حمى الحماسة لتمزيق العدو. لا مفر من الاعتراف بأن رأى الصواب يختفى يأساً أو خوفاً عند ارتفاع درجة حرارة الشارع إلى حد الهلوسة.

لذلك سنجد أن رجل السياسة المحترف الملتحق بالأنظمة الشمولية يرى لدواعٍ عملية تماماً أن ذكر الحقيقة حماقة كبرى

وأن التعبير بصدق عما يشعر به هو انعدام للكفاءة السياسية وبالممارسة المستمرة للكذب يفقد نهائياً القدرة على «غربة» الواقع والتعرف على ما هو صواب كما تتعطل بداخله ماكينة الشعور فيتربط على ذلك ضرورة أن يُملأ كل صباح بالحقيقة المفترضة والشعور الواجب إعلانه تماماً كالساعات القديمة ذات الزنبرك .

عودة للفلاح الفصيح، إذا كانت هذه البردية تذكر لأول مرة في التاريخ ما يسمى بتقارير الرأي العام، فلا شك أنها تكشف أيضاً عن قدم ورسوخ الشق السرى في العمل الأمنى في مصر القديمة، فبعد آلاف السنين سنقرأ عما يسميه رجال الأمن «تمويل المصدر بدون معرفته» والعمل على توفير المعيشة له ولأسرته في حدها الأدنى، طعامه هو سيمده به «صديق» وطعام الأسرة سترسله الإدارة المحلية بناء على خطاب سرى، المهم أن يتفرغ هذا المصدر للكلام فتعرف القيادة السياسية ما خفى عنها.

سؤال: هل من المستحيل أن تُجمع الجماهير الفرحة أو الغاضبة على رأى صواب، بمعنى أنه فى صالح الجماعة؟

الإجابة: نعم، من الممكن فى حالة واحدة فقط هى تنفيذ قرار اتخذته العقل الجمعى تماماً كما حدث فى مصر فى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ . لقد خرجت الناس جميعاً من إسكندرية إلى أسوان تطالب عبد الناصر بالآ يتنحى عن السلطة. وإذا كانت لكل حقيقة عدة أوجه صحيحة فسنختار نحن الوجه الذى يقول، لقد تحرك الشعب المصرى ليس لإبقاء عبد الناصر فى السلطة ولكن لمنعه من التخلّى عنها، لم تخرج الناس تأييداً لشخص بل لمحاصرته ومنعه

من مغادرة مكانه، كان هو الربان الوحيد وكانت كل الخرائط الملاحية فى جيبه هو فكيف يبحرون بدونهم والقارب مهدد بالغرق، كان صاحب المولد، كيف يتركونه يمشى قبل أن ينفذ هذا المولد، كان هذا الشعور المر بالاستنكار هو السبب العميق لخروج الناس إلى الشارع، وهذا هو بالضبط ما عبرت عنه نكتتان ظهرتا فى ذلك الوقت، الأولى تقول أن الناس كانت تهتف فى سرها (أ...) (أ...) لا تتنحى، والثانية عن شخص سأل زميله عن الساعة فرد عليه: تسعة وعشرة.

فصاح فيه ساخطاً: أنتم حاذلونا بتسعة وعشرة؟!
كان قرار العقل الجمعى صواباً وكان العقاب مروعاً لم يتحمله الرجل أكثر من ثلاثة أعوام.

معانا والا مع التانيين؟

كما هو متوقع فى مثل هذه الظروف سارع بالإجابة الوحيدة المنقذة: معاكم.. معاكم.. معاكم.

فردوا عليه بدهشة واستنكار: معانا؟ طب خد.

وعلى الفور انطلقت مدافعهم الرشاشة لترديه قتيلاً بينما هم يتصايحون فى نشوة: احنا التانيين.. احنا التانيين.

النكتة الممتازة لا تكتسب امتيازها من جدتها بل من جديتها، تلك الجدية التى تتبدى فى قدرتها على إحداث قدر من البهجة فى نفس سامعها وقائلها أيضاً بالإضافة إلى قدرتها على الكشف عن رسالتها فى تلخيص معجز.

هى تلخص بكل وضوح فى إطار من البهجة الحالة السياسية والاجتماعية التى تمر بها الجماعة فى لحظة تاريخية محددة. لذلك أتعامل معها بوصفها كتاباً ثميناً أو بحثاً يتسم بالصدق والجدية، بالطبع بعد حصولى على نصيبى من البهجة منها.

هى بالتأكيد نتاج صادق للعقل الجمعى ورسالة منه يعبر بها عن طبيعة التوترات التى تضغط عليه فيطلقها لاستعادة توازنه، تماماً كما يحدث عندما تفشل اللغة وتنجح آهة الألم فى إبلاغ الآخرين بما نعانيه. والنكتة بهذه المواصفات تستحق الاحتفاء بها لندرته، فمعظم النكت ليست أكثر من قوالب قديمة يعاد ملؤها أحياناً عمداً ثم تضخ فى الشارع كسلاح إعلامى. وفى أحيان أخرى يستدعيها العقل الجمعى ويعيد صوغها فى حال أن تتشابه الظروف التى يمر بها مع الظروف التى أوجدتها. فالنكتة التى

الأنا

والآخر

كان الطريق خالياً من المارة عندما خرج الرجل من منزله يمشى على غير هدى غارقاً فى همومه، وفجأة وجد نفسه محاصراً بعدد كبير من البشر (جماهير) يحملون المدافع الرشاشة والسكاكين والجنائز والقنابل اليدوية، صرخوا فيه بوحشية: قف عندك أيها الوجد.. مع من أنت؟! معانا، ولا مع التانيين؟

استولى الفرع على الرجل فألجم لسانه، نظر إليهم مصعوقاً عاجزاً عن النطق فعادوا إلى الصراخ: انطق يا وجد.. تكلم... معانا والا مع التانيين؟

أخيراً تمكن الرجل من استجماع قدر لا بأس به من شجاعته الهاربة وهمس متسائلاً: طب أعرف بس لو سمحتم.. حضراتكم مين؟ والتانيين مين؟

ازدادت وحشيتهم وصاحوا فى ضراوة: إخرس يا وجد، أجب..

تسمعتها عن ديكتاتور حالى من المؤكد أنها قيلت عن عشرات الطغاة فى أماكن وأزمنة عدة، غير أنها تظل دائماً قابلة للتحديث وإعادة الصياغة.

سأعطيك مثالا عن قالب شهير ومعروف - كان الجو صحواً فى برلين الشرقية عندما فتح الرئيس الألمانى أولبريشت مظلمته ووضعها فوق رأسه، وعندما نبهه مرافقوه إلى أن الجو صحو رد عليهم: هى تمطر فى موسكو.

أو ذلك الزعيم الاشتراكى الذى كان يسعل بشدة على رغم أنه غير مصاب بالبرد، وأخيراً اكتشفوا أن الرفيق ستالين يعانى من الانفلونزا. وهو قالب مشهور يسخر فيه العقل الجمعى من الاتباع والتبعية.

وإليك قالب آخر كثيراً ما يعاد تحديثه وإعادة صياغته ليلائم ظروفًا وأشخاصاً معينين. كان الطاغية يمر فى موكبه المهيّب بين عشرات الألوف من شعبه وكانوا يهتفون له بحماس: يا زعيم، يا عظيم، يا مهيّب، يا منقذ، يا منتصر... الخ.

واحد من الناس كان يردد بحماسة أمثال هذه الهتافات وكان معه طفله الصغير الذى قال فجأة بصوت مسموع لكل من حوله: يا أبت.. أليس هذا هو الرجل الذى تقول لى عنه أنه مجرم وسفاح وقاتل ونذل.

وعلى الفور أمسك الرجل بالطفل ورفع عالياً صائحاً بأعلى صوته: يا ناس.. الولد ده ابن مين؟

ولكن نكتتنا التى صدرنا بها هذه المقالة لا قالب قديماً لها،

ولكنى أزعّم أن بناءها الدرامى قام به شكسبير، نعم وليم شكسبير هو المبدع الحقيقى لهذه النكتة، هو الذى ثبت عناصرها الأساسية فى واحد من أهم مشاهد مسرحيته «يوليوس قيصر» وهو المشهد الذى ركز فيه بتكثيف ووضوح فكرته عن آليات العقل عند الجماهير وما يمكن أن تفعله عندما يتلاعب بها زعماءها من خلال الكلمات. فبعد اغتيال يوليوس وقف بروتس النبيل الرومانى وأحد القتلة، وقف أمام الجماهير وأوضح لهم فى بلاغة منقطعة النظير أنه اشترك فى قتله دفاعاً عن الديمقراطية بعد أن تأكد لديه أن قيصر كان (فى طريقه) لى يصبح ديكتاتورا، فعلت هتافات الجماهير تحييه على مجهوده من أجل الديمقراطية، بعدها وقف انطونيو الضابط الشاب تلميذ قيصر ليرثيه فى خطبة بعد أن تعهد لقتلته بأنه لن يذكرهم بسوء. وبالفعل تكلم عنهم بكل الخير، وذكر صفاتهم الحميدة كزعماء ونبلاء ولكنه شرح «للجماهير» أن قيصراً كان يحبهم لدرجة أنه أوصى لكل مواطن فيهم بنصيب من أمواله وأطيانه وحدائقه. لقد وافقت الجماهير بحماس منذ لحظات على قتل قيصر دفاعاً عن (الديموقراطية)، اقنعتها بذلك خطبة بليغة، ولكن بلاغة الدنيا لا تستطيع أن تمنع الجماهير من الاحساس بالثورة والغضب، عندما تعلم أنها خسرت نصيبها من الأموال الذى حدده لها فى وصيته، كان انطونيو يقرأ من ورقة، ولكن هل كانت هذه الورقة هى فعلاً وصية قيصر؟ ولماذا كان انطونيو يحتفظ بها فى جيبه فى تلك اللحظة بالذات؟ الواقع أن هذه الورقة اختفت فى المشاهد التالية من المسرحية،

المهم أن هذه الورقة أدت دورها في دفع الجماهير للخروج إلى الشارع هائجة غاضبة مدمرة وقد عازمت على أمر واحد هو قتل الذين اشتركوا في قتل قيصر.

وبالقرب من مبنى الكابيتول قابلوا «سنا» الشاعر الذي كان يمشى سارحاً ساهماً على عادة الشعراء، صرخوا فيه: قف عندك، ماذا تعمل؟ وأين تسكن وما حالتك الاجتماعية أعزب أم متزوج؟ ما هو اسمك؟

استولى الفزع على «سنا» وكأغلب الشعراء بدأ يتلعثم وهو يستعيد ما قالوه: أعزب أم متزوج؟ وأين أسكن؟ وما هو اسمي؟ وماذا أعمل؟ أنا أعزب..

- عظيم يا سيدى.. رد مباشرة وبصراحة.. أين تسكن؟

- أسكن بالقرب من الكابيتول.

عظيم يا سيدى. (أريدك أن تلاحظ السخرية في كثرة استخدام شكسبير لكلمة سيدى في هذا المشهد، فهذه الجماهير المهذبة على وشك أن تقتل شخصاً بريئاً) بقى اسمك يا سيدى.. ما هو اسمك؟ - اسمى هو سنا.

وهنا صرخوا صائحين: آه سنا المتآمر.. سنا المتآمر.. اقتلوه.. مزقوه إربا.

صاح سنا فى رعب: لا.. لا.. لا.. أنا سنا الشاعر.

وهنا صاح أحدهم فى اصرار: اقتلوه لأشعاره الرديئة.. اقتلوه لأشعاره الرديئة.

فعلا مزقوه إربا، ليس لأنه سنا المتآمر وليس لأنه سنا الشاعر،

بل لأنه وجد فى المكان الخطأ واللحظة الخطأ، ولأنهم يريدون أن يمزقوا الآخر. هم ضد الآخرين (التانيين) فالتلاعب بعواطف البشر لأسباب سياسية بهدف تدمير الخصوم لا ينتج عنه سوى فقدان العقل، عندها تقتل الناس شعراءها ولا يمكن حماية نفسك منهم، لا توجد طريقة تثبت بها أنك (معهم) بعد أن عجزت عن تحديد من هم؟ هل هم (الأولانيين) أم (التانيين)؟.

إذا كانت لهذه النكتة رسالة فهى تقول أنه عندما يوجد (الانا) فى كفة والآخر فى الكفة الأخرى تبدأ الجريمة. وأتصور أنها أيضا تنبهنا إلى أننا نكون أغبياء وضحايا معا عندما نتصور أن هناك الأنا وهناك الآخر. هى رسالة من العقل الجمعى تطلب منا فى لطف أن نفكر فى أننا سكان هذا الكوكب الصغير، كلنا (نحن)، كم هو غبى ومؤلم أن الجائعين فى أفريقيا يجدون أموالاً يحشون بها طائراتهم بالصواريخ ليقتلوا بها بعضهم البعض. مع من منهم نقف ومن نلوم؟ مع (الأولانيين) أم مع (التانيين) وهل توجد طريقة للتمييز بينهما؟

الشعبى عن القدر وما يفعله بالبشر بعد الغزو الخارجى وكيف إنه يحول أعظم العظماء إلى أسرى وعبيد، لقد بيعت فى الأسواق ومن تاجر لتاجر إلى أن استقر بها الأمر عند صاحب هذه القلعة، ثم سألها عن حكاية (البساليك) هذه التى يبحثون عنها هامسين فأجابته: صاحب هذه القلعة ازداد وزنه بشكل مزعج منعه من القيام حتى من مكانه، فشل أطباء القصر فى علاجه بالأدوية المعروفة وأخيراً استقر رأيهم على أن علاجه الوحيد هو أن يشرب مرق حيوان البساليك الصغير المسلوق فى ماء الورد . وهذا الحيوان يعيش فى الغابة ولا يظهر إلا فجراً للنساء فقط بشرط أن تنادى عليه فى همس: بساليك .. بساليك ، إطلع يا بساليك .

طلب منها صادق أن تأخذه لصاحب القلعة وتقدمه له بوصفه طبيباً مصرياً شهيراً ففعلت . وجد صادق أمامه جثة هامدة من الشحم واللحم عاجزة عن الحركة فقال له: مولاي .. تخصصى الأساسى هو العلاج بالبساليك ، ولكننا فى مصر لا نعالج البدانة بشوربة البساليك . بل نضع هذه الشوربة ممزوجة بماء الورد وبيعض التوابل الأخرى فى «قربة» ومن خلال مسام القربة يتسرب حساء البساليك ليختلط بعرق الإنسان وينفذ من خلال مسام الجلد إلى أورده وشرابينه ويدور مع الدورة الدموية فيحدث التأثير المطلوب فوراً .. الآن يا مولاي ستمسك بهذه القربة وتقذفها تجاهى . إمسك يا مولاي.

» كان الرجل ضعيفاً جداً ولكنه استجمع ما بقى له من قوة

المتف الشمولى

كطبيب

أحب فولتير ويجذبني إليه تحديداً أنه خاض نفس المعركة ضد التخلف التى نخوضها الآن فى المنطقة العربية، وذلك منذ حوالى ثلاثمائة عام وهى فى تصورى فرق التوقيت بيننا وبين الغرب. فى روايته الجميلة (صادق) التى تدور أحداثها فى الشرق قبل ظهور الأديان السماوية، يقابل البطل بعد فراق طويل حبيبته القديمة التى كانت ملكة يوماً ما فيجدها تعمل جارية عند صاحب قلعة فى صحراء الأردن.

يجدها بالصدفة فجراً فى إحدى الغابات بين عدد كبير من الجوارى الحسان، كانوا جميعاً يبحثون عن شئ ما وهم يهمسون: بساليك .. بساليك .. إطلع يا بساليك.

تعرف عليها وما أحلاه من لقاء ثم أخذ يستفسر منها عما حدث لها وأوصلها لهذا الحال فحكى له القصة المعروفة فى الأدب

وأمسك بالقربة وقذفها فى إتجاه صادق الذى إلتقطها وأعادها إليه. أغراه صادق بأن يكرر هذه المحاولة إلى أن يسيل منه العرق، فى تلك الليلة نام الرجل من فرط الإجهاد نوماً عميقاً وفى الغد كان أكثر تماسكاً وقوة وهو يقذف بالقربة لصادق . بعد أسبوع من هذه التدريبات كان الرجل قادراً على السير وركوب حصانه . وفى النهاية بعد أن استعاد الرجل عافيته ورشاقتة وقوته قال له صادق: مولاي، دعنى أصارك، هذه القربة امتلأت بالهواء فقط .. وعلاجى يسمى العلاج بالرياضة البدنية، أما الشئ الذى يهمنى أن تعرفه حقاً فهو أن حيوان البساليسك لا وجود له على ظهر الأرض .

وفى المساء رحل صادق من القلعة ومعه حبيبته مكافأة له على أدائه مهمته بنجاح ، كان حريصاً على ألا يتناول طعام العشاء فى القصر فقد كان على يقين أن أطباء القلعة سيدسون له السم فى الطعام .

لنترك الآن صادق وحبيبته ولنترك فولتير ولنقفز ثلاثمائة عام فى الزمن إلى الأمام لنقرأ محضر اجتماع اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٤ . كان هذا الاجتماع هو الوحيد الذى حضره عبد الناصر، ومحضر الاجتماع منشور وصادر عن هيئة الكتاب، دار الحوار حول الاشتراكية، هل هى إشتراكية عربية أم تطبيق عربى للإشتراكية، ماذا نفعل فى مواجهة العقبات التى تظهر عند التطبيق، مئات الأسئلة أطلت برؤوسها ومنها، هل يمكن تطبيق الاشتراكية بغير قيادات اشتراكية ، السؤال نفسه يتضمن

الإجابة، طبعاً لا .. إذا من المستحيل تطبيق الاشتراكية فى غياب الإنسان الاشتراكي، هذه بديهية بالطبع ، وهكذا أخذ كل سؤال يفتح الباب لسؤال آخر وكأنها حجرات تفتح فى قصر التيه واحدة بعد الأخرى، إلى أن ظهر سؤال وكأنه الوحش الكبير الذى يخرج من البحيرات فى أفلام الرعب .. من هو الإنسان الاشتراكي؟

وانتهى الاجتماع بغير نتيجة مقنعة أو حتى شبه مقنعة عن السؤال، وإلى الأبد لن توجد إجابة لسبب بسيط، أن الإنسان الاشتراكى هو نفسه حيوان البساليسك ، والمثقف الثورى الذى طلب الاستعانة بالإنسان الاشتراكى كان على يقين من أنه لا يوجد إنسان بهذه الصفة تماماً كما كان أطباء القلعة يعلمون علم اليقين أن البساليسك حيوان لا وجود له .

تستطيع الحصول على إنسان بدين أو نحيل، تستطيع بسهولة أو بصعوبة الحصول على طبيب فى تخصص معين، وتعرف من أين تحصل على فيل أو قمح أو طائرة أو مدرعة، كما تستطيع الحصول على إنسان مهذب أو مجرم، ولكن قل لى بالله عليك من أين تستطيع الحصول على الإنسان الاشتراكي؟ من تخاطب من الشركات العالمية؟ هل هو إنسان عادى معدّل أعيد صياغته فى معاهد الإتحاد السوفيتى مثلاً؟ وهل هو متاح طول العام أم هو يظهر فى مواسم معينة؟

هنا نكتشف بعداً جديداً فى المثقف الثورى الشمولى، هو يعمل على أن يجلس على حجر الدولة، ملمحاً شهيراً من ملامحها ومعلماً مهماً من معالمها، ووسيلته إلى ذلك الإبتزاز عن طريق

الإيحاء باحتكار الحقيقة والمعرفة لذلك هو يحرص دائماً على أن يصور لك الأمر بأنه (أصعب بكثير مما تتصور) تماماً مثل الميكانيكي اللص أو العاجز تذهب إليه بعطل بسيط في سيارتك فيفك لك الموتور كله.

إملاً مدينتك بالطعام والعدل والحرية، سيقول لك في النهاية: كل هذا لا أهمية له في غياب المشروع القومي .. لابد من مشروع قومي.

ولكن حكيماً آخر يحرص على أن يكون متميزاً عن الآخرين يصف لك بساليك من نوع مختلف: لا بل هو الحلم القومي. ماذا يعنى الحلم القومي؟ أن تحلم الناس جميعاً أثناء نومها حلماً واحداً، وماذا عن طبيعة الحلم نفسه ومشاهده، هل هو حلم (الجائع بسوق العيش) مثلاً؟

شكل آخر من أشكال الإبتزاز عند المثقف الشمولي، هو إقحامك (أن ما تعرفه قليل جداً) فأنت لا تعرف مثلاً أنه يوجد في بلدك ١٢٤٢٤ مليونيراً، ٨٥٪ منهم يملكون أكثر من ٥٠ مليون دولار، ٢٪ يملكون أكثر من ٧٠ مليون دولار، ٤٪ منهم يملكون أقل من ٢٠ مليون دولار، وهناك ٦٪ لا تعرف على وجه التحديد كم يملكون وإن كان الرقم المتداول في الأوساط المالية هو أكثر من ٣٠ مليون دولار. أما عدد المليارديرات فهو ٥٨٥ شخصاً تقريباً مع مراعاة أن هناك ثلاثة منهم تم إستبعادهم من الإحصاء لوفاتهم في حادث، منهم ٧٠ شخصاً فقط يملكون ٥٢٠ مليار دولار والباقيون منهم ٣٪ يملك الواحد منهم أكثر من ٨ مليارات

و ٦٪ منهم يملكون أكثر من ٧ مليارات إلى ٨,٥ مليار. وهكذا يستطيع أن يكمل بثقة، كما أن هناك ١٠ ملايين شخص يرتدون البدلة بصديري منهم ٦ ملايين يرتدون ربطة عنق في شهرى ديسمبر ويناير ومنهم من ٤ - ٤,٥٪ يرتدون القميص وياقته مفتوحة في شهرى مارس وإبريل ويزداد العدد إلى ٥,٥٪ في شهر مايو، كما يوجد ٢ ملايين شخص يرتدون الصنادل في شهور الصيف منهم ١,٧ مليون يرتدونها في شهرى يوليو وأغسطس فقط.

لا حد لما يمكن أن ينحدر إليه المثقف الشمولى المنشغل بالإستيلاء على عقل (ال جماهير) بلا قضية حقيقية.

بساليك آخر من النوع الكبير لا يمكن العثور عليه بالهمس لا في الغابات فجراً ولا في الوديان والصحاري، هو الأمن القومي العربي، ستجد هذا الدواء موصوفاً في رويشتات كثيرة وأتحداك أن تجده في أى صيدلية، كيف يمكن رسم إستراتيجية للدفاع عن الأمن القومي العربى ضد العدوان القومي العربى؟ إن الأمن القومي في أى بلد هو محصلة ما يشعر به الأفراد من أمن، أى أن أمن المواطن الفرد نفسه هو ما نطلق عليه الأمن القومي. وفي بلاد لا يتمتع الفرد فيها بحقوقه الإنسانية سيعجز الجن نفسه عن حمايتها من الضياع.

لست أطالب بثورة أو حتى إنقلاب في التفكير في ما نردده من ألفاظ وتعبيرات. لابد من عملية جرد، من الضرورى تنظيف أدرج المكاتب من التعبيرات التى تركها أصحابها ورحلوا، كما يجب

تنظيف زجاج عدسات الكاميرات من التعبيرات الفاشية التي التصقت بها في عهود قديمة كما يجب تسليك المايكروفونات التي انسدت من كثرة التعرض لغبار الألفاظ الغوغائية.

المشروع القومي هو نفسه المشروع الفردي ويقوم به فرد، والحلم القومي العربي هو العمل على تحقيق أحلام الفرد وكل فرد.

الإنسان الفرد هو أدواتنا الوحيدة التي نتعامل بها مع الحياة وأي محاولة لاستخدام أدوات أخرى لن ينتج عنها سوى الألم والحسرة وربما الحصار.

في انتظار

الجماهير

في صراعات السلطة في الحكومات الثورية عندما تصل إلى حد الصدام المكشوف، من العبث أن نتساءل عن الطرف الذي يقف بجانبه الحق، فلا حق ولا باطل في صراعات السلطة ولا ظالم ولا مظلوم. يوجد فقط غالب ومغلوب تماماً كمباريات الكأس في كرة القدم التعادل لا يفيد، لا بد من الهدف الذهبي تسجله في مرمى الخصم فتغيبه عن الساحة نجماً آفلاً وتشرق أنت عليها قمراً منيراً. وطريقة التغيب تختلف من مجتمع لآخر وإن كان الطابع الغالب في العالم الثالث هو أن ترسل بخصومك المستهدفين إلى العالم الآخر من أقصر الطرق. أما في مصر فقد كنا نضعهم في سجون خمس نجوم فهم في نهاية الأمر وبالرغم من كل ما (ارتكبوه) ينتمون لأشرف القبائل على وجه الأرض وهي: السلطة.

وفي صراعه مع مراكز القوى في مايو ١٩٧١ استطاع

السادات أن ينتصر على خصومه ليس بالضربة الفنية فقط ولكن الناعمة أيضاً، استطاع القبض عليهم جميعاً في نعومة وسلاسة وأودعهم السجن. ففي ذروة الصراع أعلنوا جميعاً وكانوا يمثلون كل قيادات مصر الشعبية والحكومية، أعلنوا استقالاتهم تبعاً في الإذاعة المصرية بصوت مذيع شعبى جماهيرى متحمس وحرصوا قبلها وبعدها على إذاعة موسيقى حماسية من ذلك النوع الذى يغرى (الجماهير) بالنزول إلى الشارع ثم جلسوا فى منازلهم فى انتظار الجماهير التى ستأتى حتماً لتحملهم على الأعناق وتطلب منهم سحب استقالاتهم وعدم التنحى تماماً كما فعلت مع عبد الناصر منذ أربعة أعوام فقط. ولكن الجماهير لم تأت، الذى أتى هو مجموعات القبض التى أرسلها السادات إلى بيوتهم فى الوقت نفسه التى كانت فيه الجماهير تستمتع بأمسية الخميس المهمة فى حياة المصريين. وهذا عنصر مضاف، فالحس البيروقراطى كان قوياً للغاية داخل هذه القيادات الحكومية والشعبية، ولما كان البيروقراطى بطبيعته يميل إلى تأجيل عمل اليوم إلى الغد فإنه فى يوم الخميس بالذات سيؤجله إلى ما بعد غد، أى إلى يوم السبت فأتاح ذلك للسادات أن يضرب ضربته باطمئنان يومى الخميس والجمعة.

لم تخرج الجماهير إلى الشارع لسبب بسيط، لا يوجد وجود مستقل للجماهير فى العالم خارج العقل وبعيداً عن أصابع السلطة، السلطة المباشرة داخل الحدود، أو أصابع سلطة أخرى تنتمى لعاصمة بعيدة. هى معنى مطلق من صنع العقل نفسه، أما المعانى الجزئية المحددة فهى موجودة بالفعل على الأرض خارج أنفسنا، توجد قوات شرطة، وقوات مسلحة، وأمن دولة،

ومخابرات وسجون ومحاكم. كما توجد الشرعية وهى من أهم الثوابت فى عقول المصريين. إن الإحساس بالشرعية كان قوياً داخل عقول خصوم السادات وإلا كانوا أعلنوا استقالته هو وأرسلوا بمن يقبض عليه فقد كانوا يملكون الشرطة والمخابرات وبقية إدارات الحكومة كلها.

فى مسرحية «فى انتظار جودو» ينتظر إثنان من التعساء شخصاً اسمه جودو سيأتى لتخليصهما من يؤسهما، هما على يقين من أنه سيأتى ولكنه لا يأتى لسبب بسيط، هو أنه لا وجود له سوى فى مخيلتهما.

خاض السادات معركته مسلحاً بخبرة ثورية طويلة زادته وعياً بخرافة المفردات الثورية التى ليست أكثر من معانٍ مطلقة مستحيلة التجسيد على الأرض، كما خاضها مسلحاً بذكائه العادى فتمكن من هزيمة خصومه المسلحين بالذكاء الخارق. لا أعرف لماذا أعطت اللغة بعض أنواع التفكير هذه الصفة، هل لأنه يماثل القذائف الخارقة الحارقة، هل لأنه يخرق عقول أصحابه أم لأنه ينشأ عن خروق فى عقولهم؟!

السادات صاحب خبرة طويلة فى الشارع ويتمتع بحس تاريخى قوى للغاية، فهذا الرجل الذى لم يكف عن المغامرة والحركة فى شبابه وجد أن أفضل ما يفعله بعد الثورة هو أن تسكن حركته تماماً، وفى وجود المغامر الأعظم لا داعى للمغامرات الصغرى، وفى وجود صاحب أعظم الحركات لا بد من الامتناع عن الحركة والتحرك، وفى وجود القائد التاريخى الملهم العظيم الذى لا ينطق إلا الحق والصواب فعليه أن يعزف كلمة «نعم» بكل النغمات

وأعذبها، وفي وجود هؤلاء الذين «يفهمونها وهي طائفة» لا داعي لأن تظهر أنك تفهم شيئاً على الإطلاق، وبذلك كله يتزايد الاحتمال بأن تسقط الثمرة في يدك في النهاية، وهو ما حدث فعلاً.

كان السادات يعي بأن الشعب المصري لا شأن له على الإطلاق بما يحدث من صدام في بناية السلطة بين المسؤولين من سكان الأدوار العليا، هذا هو ما تعلمه من تراث الحكم المملوكي الطويل، في مثل هذا النوع من الأحداث عليه أن يلزم داره وأن يغلق على نفسه الأبواب والشبابيك بكل ما يملك من مزاليج ومتاريس وبذلك تخلو الشوارع والميادين والحارات من البشر فيتباح لأطراف الصراع إنهاؤه بسرعة لصالح الطرف صاحب الهدف الذهبي. وليس لذلك صلة بالقيم الإنسانية من جبن وشجاعة، هذه نظرة واقعية وسلوك عملي، فعندما تكون وظيفتك الوحيدة هي الفرجة على حكامك من بعيد في المواسم والأعياد، ثم يتحول هؤلاء الحكام إلى ملاكمين ومصارعين فمن البلاهة أن تدخل بقدميك الحلبة بينهم فتموت أنت بالقاضية بلا ثمن وبغير قضية.

وإذا كانت الجماهير معنى كل مطلق فقد كان السادات يعلم أن «السلطة» أيضاً معنى مطلق لا يمكن الإمساك به تماماً كالهواء ولكن أفرادها المؤثرين لهم وجود فعلي، يوجد فلان الفلاني الذي يحتل منصب كذا ومكتبه يقع في الدور الفلاني في المبنى رقم كذا بشارع كيت، وهو يقيم في المنزل الفلاني شقة رقم كذا وبما أنه أقال وزير الداخلية فمن حقه أن يعين على الفور وزيراً آخر له صلاحية أن يرسل برجاله للقبض على كل (الأقلنة، جمع فلان على ما أتصور) هكذا قبض السادات على كل رجال السلطة وأودعهم السجن.

بالحتم سينشأ فراغ إعلامي مفاجيء لأن غالبية الكتاب والصحفيين كانوا على صلة مباشرة بالجنح المهزوم ولكن أمكن ملء هذا الفراغ في لحظات بأن تولى الأستاذ محمد حسنين هيكل قيادة الأوركسترا الإعلامي الجديد ببراعة وإبداع «صانعاً» رأياً عاماً جديداً ضد المغلوبين، ويعد أعوام طويلة من مساهمته الفعالة في إدخالهم إلى السجن، انضم إلى تشكيلاتهم بعد الإفراج عنهم أو انضموا هم إليه وأصبحوا سمناً على عسل وهذا يدرك على أنه لا قضية في صراعات السلطة، ولا إساءة ولا مسيء ولا مساء إليه، وأنه من الممكن أن ينتقل اللاعب من النادي الخصم إلى ناديك فيحظى بحفاوة جماهيرك وحماستها، وبذلك لا يوجد مبرر لوجود الانفعالات الإنسانية من غضب أو حب أو كراهية أو خلافه.

كان لابد أيضاً في الوقت نفسه من تحييد جماعات اليسار من الحرس القديم فعين وزيراً جديداً للإعلام ينتمي نظرياً أو شكلاً للييسار، كان الانطباع العام أنه يسار، ولعل السبب في ذلك هو أن أخته كانت أستاذة يسارية شهيرة. وعندما استقر الأمر بعدها للسادات بطش بهيكل وبالوزير وبالييسار كله. ترى هل قرأ السادات مقولة ميكيا فيلي الشهيرة «تخلص من كل هؤلاء الذين أوصلوك إلى الحكم دفعة واحدة ثم تفرغ لإقامة العدل» أنا على يقين من أنه قرأ - على الأقل - الشق الأول، أو لعله قرأ النصيحة كلها ولم يتسع لديه الوقت لتنفيذ الشق الثاني.

في عالم السياسة يوجد أشخاص يعتبرون أنفسهم (صانعي ملوك King Makers) هيكل أحدهم ولقد سباهم بالفعل في بناء عرش عبد الناصر الإعلامي (يسمى أحياناً، شارع، جماهير، رأى

عام) ولكن السادات ليس فى حاجة لمن يصنعه أو يشارك فى صنعه فهو رجل من صنع نفسه (Self made man) وعليه أن يلعب على خشبة المسرح دور الفرد البطل ولا يجب أن يقف إلى جواره من يلعب الدور الثانى، وإذا كان لابد من وجود أدوار أخرى فلتكن جميعاً ثانوية. هناك بعد آخر فى شخصية السادات له أهمية قصوى فبالإضافة لخبرته العملية بنى البشر فى أعمال بسيطة، فهو قد عمل أيضاً فترة طويلة بالصحافة وبين الكتاب ويعرف عنهم ما لا يعرفه القراء، على الأقل كان يعرف أن مهنة الكتابة لا تعنى الصدق دائماً، وأن الصياغات البليغة المعقدة المتعالة يكون الهدف منها عادة هو تفادى ذكر الحقيقة أو العجز عن استيعابها، لذلك كان من المعروف عنه عندما يدخل عليه أحد مساعديه بمذكرة من عشرين صفحة أن ينحىها جانباً ويقول له: قل لى بالبلدى كده.. مكتوب فيها إيه؟

لقد لعب السادات فى البداية ولمدة ثلاثة أعوام على الأقل وهى الفترة التى كان يعد فيها لحرب أكتوبر، لعب بتصريحاته دور الحاكم الذى يثير الضحك، لدرجة أن كاتباً ظريفاً، لابد أن نتوقف عنده قليلاً، هو محمود السعدنى قال محدداً الفرق بين عبد الناصر والسادات (الأول كان حاي موتنا من الخوف، وده حاي موتنا من الضحك) الواقع أن حديثه عن الحرب والمعركة كان من المستحيل أن يأخذه مخلوق على محمل الجد، وبعد الحرب قال كاتب إسرائيلى (لقد خدعنا السادات بأن أوهمنا أنه يخدعنا، بالفعل خدعنا عندما تظاهر بأنه يخدعنا).

كان أغرب ما حدث فى انقلاب مايو ١٩٧١ هو القبض على

وزير الداخلية شعراوى جمعة وهو شخص نزيه لم تشب سيرته شائبه غير أن القواعد الراسخة فى الأنظمة الثورية هى أن وزراء الداخلية لا يستقيلون أو يقالون بل يقبضون على الآخرين أو يختفون وأوضح مثال لذلك هو ما حدث لبريا وزير الداخلية فى عهد ستالين الذى صدر بشأنه أكثر البيانات بلاغة وإيجازاً منذ أن عرفت الكتابة (قبض على بريا وحوكم وأعدم) كانت المرة الأولى فى تاريخ المنطقة على الأقل التى يدخل فيها وزير داخلية نظام ثورى السجن، وفى السجن التقاه محمود السعدنى الكاتب المصرى وآخر ظرفاء عصره، فقد حكم عليه هو الآخر بثلاثة أعوام سجن فقط فى قضية المؤامرة، والسبب فى أن الحكم صدر مخففاً أن السعدنى فى حوار المسجل على أشرطة مع مراكز القوى وهى المستند المادى الوحيد فى قضية المؤامرة، قال جملة أمسك بها المحامى بإحكام وهى (ربنا يولى من يصلح) أخذ المحامى يتصايح فى المحكمة: يصلح، يصلح، يصلح.. لقد قال لهم ربنا يولى من يصلح.. لم يطلب من الله أن يوليهم هم ولكنه كان يطلب الصلاح لمصر كأي مواطن شريف.. لو أنه كان معهم لكان دعاؤه لهم بالوصول إلى الحكم.

ومع ذلك دخل السجن لوجود كلمات عدة مسجلة على الشريط اعتبرها السادات بذية، والسعدنى هو صاحب الكتاب المخيف (الطريق إلى زمش) الذى يصف فيه الممارسات المروعة لنظام عبدالناصر مع المثقفين فى السجون والمعتقلات. لم يكن السعدنى منضماً لآى تنظيم سرى أو علنى ومع ذلك دخل كل سجون مصر. أما (زمش) فهو الاسم الحركى الذى اختاره لتنظيمه

الخاص وهو اختصار لعبارة (زى ما أنت شايف) وعندما يقرأ المؤرخ بعد مائة عام أو ألف كتابه، فمن المستحيل أن يشعر باحترام أو تعاطف مع هذا النظام الذى ارتكب كل هذه الأفعال الوحشية بمواطنيه بلا مبرر واضح، وبعد أن تعب السعدنى من دخوله المتكرر إلى السجن قرر حماية لنفسه أن يقترب من الشخص الوحيد الذى يقبض عليه فى كل مرة، وزير الداخلية، وبالفعل أصبح السعدنى أميناً للتنظيم الطليعى فى منطقة الجيزة، فى الوقت الذى كان فيه شعراوى جمعه أميناً عاماً للتنظيم الطليعى فى مصر كلها.

استولت دهشة مروعة على السعدنى لرؤية وزير الداخلية وأمين عام التنظيم للاتحاد الاشتراكى مرتدياً بدلة السجن، وبعد أن تمالك نفسه قال له: لقد اقتربت منك وصادقتك بوصفك أعظم مركز للقوة فى مصر، لكى لا أدخل هذا السجن؛ ومع ذلك ها أنذا أدخله لأجلك مسجوناً معى.. ومع ذلك يقولون عنكم مراكز قوى.. ماذا تكون مراكز الضعف إذا؟ :
 بعد مرور أشهر عدة، زار صلاح السعدنى الممثل المعروف أخاه فى السجن فقابل معه شعراوى جمعة الذى سأله بلهفة: الجماهير عاملة إيه بره يا صلاح؟

قال لى صلاح: والله لولا جلال الموقف لوقعت على الأرض من شدة الضحك.. الرجل مازال يتكلم عن الجماهير!!

061053

رقم الإيداع ٩٩/١٤٥٦٥

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0873 - 3

هذا الكتاب

كتاب «هل لديك أقوال أخرى؟!» من الكتب التي تجعلك تبتسم كلما تذكرت واقعة من وقائعها مهما طال الزمن.. فالمؤلف كاتب من جيل الأدباء العظام.. كتب العديد من المسرحيات الضاحكة.. وعشرات الكتب ومئات المقالات الساخرة.. وهو قادر على أن يجعلك تضحك مهما كان الموضوع الذي يكتبه أو يعرضه.. حتى ولو كان مغرقاً في الجدية.. والضحك عند على سالم ضحك راق.. فهو يعتمد على كوميديا المواقف وليس على القفشات أو البذاءات أو النكت.. فالنكتة تضحك عليها مرة واحدة.. أما الموقف الضاحك فيجعلك تبتسم كلما تذكرته.. لذلك فإن كوميديا المواقف هي أرقى أنواع الكوميديا على الإطلاق.

نبيل أباطة

طبع بمطابع أخبار اليوم



الشمس 5



00061053